41

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

دورية تصدر كل شهرين من إسطنبول www.hiramagazine.com السنة التاسعة / (مارس - أبريل) ٢٠١٤

ترنيمة وتسبيحة

أرهفْ سمعك، وحُدَّ نظرك،
واستنطق حسَّك وحدْسَك...
ترَ "هو" على شفاه الوجود، ترنيمةً وسجودًا،
ورسمًا موجودًا على الحياة المشدودة...
يشقُّ الأستار ويفتحُ للخلود الأبواب...
والإلحادُ المهزوزُ
كمدًا يذوب، وعدمًا يصير.

* * *

٢ الإنسان الذي نتوق إليه
فتح الله كولن

١٠ القرآن روح الأمة الإسلامية
أ.د. الشاهد البوشيخي

٥٢ أبناء الخدمة
أديب إبراهيم الدباغ

رجل الأمل المرتقب

قيل لأيوب عليه السلام نبي الصابرين وسيد المبتلين أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾(ص:٤٢)، أي اضرب، وفي المكان الذي ضرب برجله الأرض، تدفق زخّارًا ينبوع الشفاء الذي اغتسل به وشرب منه، فإذا بأوجاعه وأوصابه وآلامه تنزاح عنه وتغادره إلى غير رجعة وهو في غاية من الصحة والعافية، وكأنه لم يكن "أيوب" ذاك الوجيع المبتلى من قبل...

وأمتنا -منذ عدة قرون- غدت عشيقة مشتهاة للأزمات والكوارث والمصيبات، تلازمنا ملازمة العاشق الولهان، وكأننا من دون أمم الأرض كُتب علينا أن نكون " أيوب" هذا الزمان، نتجرع الآلام ونعايش الأحزان، وننتهي من مأساة لنقع في الأخرى، ونطلع من فجيعة لنعاني من فجائع أشدّ وأمر، فنصبر ونصبر ونحن ننتظر أن تنبجس ينابيع الشفاء من تحت أرجلنا لنشرب ونغتسل.

وإذا كنا قد صبرنا طويلاً وطويلاً جدًّا حتى ملّ الصبر منا، غير أننا لم نفقد الأمل، ولم نقنط أو نيأس، وبقينا ننتظر أن يأتي يوم الخلاص على يد رجل منا قد صهرته المآسي صهرًا، وعجنته عجنًا حتى استوى رجلاً عظيم الهامة، واسع الإدراك، مستوعبًا لعصره متفهمًا لمشاكل أمته، فيندفع إلى الأمام ليقود هذه الأمة من جديد وينقذها مما تعانيه من بلاءات وأوجاع ومصائب وآلام.

وهذا الأمل الذي عشنا به وعشنا له، ابتعثه فينا وغرسه في عقولنا وقلوبنا رجل الأمل الكبير "فتح الله كولن"، فهو يأخذ بأيدينا لنفتش عنه في مكانه من رجال الأمة وشبابها وفتيانها، وهو على يقين بأن رجل الإنقاذ هذا قادم لا محال، وهو وإن كان غائبًا بجسمانيته إلا أنه حاضر شديد الحضور في مخليتنا وذاكرتنا ووجداننا، نعيش معه، ونعيش له، ونترقب قدومه بلحمه وعظمه وبكل كيانه بين يوم وآخر، وربما بين ساعة وأخرى. وها هي الأمة تفتش عنه في عمق أعماق نفسها، وفي ضميرها وذاتها وتاريخها، وفي قرآنها وسنة نبيها، وقد أدركت أخيرًا أنها كلما استثارت إيمانها، وفجرت طاقاتها، وحركت قدراتها، وشحذت إرادتها، اقتربت أكثر من رجلها المؤمل، وربما التقته في أي فرد من أفرادها، فليالي هذه الأمة حبلى على الدوام بأبرّ الأبناء وأصدقهم من رجال الروح والقلب، حيث تقذف بهم من رحمها الخصب بين وقت وآخر ولا شك أنها اليوم حبلى بهذا الرجل المرتقب وهي على وشك أن تضع حملها، وترسل رجلها للمهمة التي قدر له أن ينجزها لهذه الأمة في هذا العصر العصيب.

المحتويات

الإنسان الذي نتوق إليه / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
التربية وسؤال القيم / د. سمير بودينار (تربية)	٤
أعظم شبكة اتصالات بيولوجية / د. إبراهيم أبو عيانة (علوم)	٦
القرآن روح الأمة الإسلامية / أ.د. الشاهد البوشيخي (قضايا فكرية)	١٠
تاريخ الطب النفسي في بلاد المسلمين / أ.د. طارق الحبيب (تاريخ وحضارة)	١٦
أطفالنا وثقافة الأم التربوية / د. أحمد مختار مكي (تربية)	٢٠
يا حمّال! / حراء (ألوان وظلال)	٢٣
من سياسة إطفاء الحرائق إلى التخطيط الإستراتيجي المؤيَّد / د. محمد باباعمي (قضايا فكرية)	٢٤
تغيير نبوي / د. سلمان العودة (قضايا فكرية)	٢٧
المجريطي بين الكيمياء وعلم الفلك / أ.د. بركات محمد مراد (تاريخ وحضارة)	٢٩
الصراخ لا يجدي! / حراء (ألوان وظلال)	٣٢
الجمال المعنوي والفني من خلال "البلبل" / د. إسماعيل إسماعيلي علوي (قضايا فكرية)	٣٣
النوم على الشق الأيمن / صلاح عبد الستار الشهاوي (علوم)	٣٨
الإسلام دين الإنسان / عبد الوهاب بوخلخال (قضايا فكرية)	٤١
إنجازات المسلمين في الفلك والعلوم الطبيعية / د. يعرب قحطان الدُّوري (تاريخ وحضارة)	٤٥
حضارة الإيمان ومدنية العلم / د. العطري بن عزوز (ثقافة وفن)	٤٩
أبناء الخدمة / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	٥٢
طارِقو الأبواب / حراء (ألوان وظلال)	٥٣
زجاجة حليب / د. عبد الله بن صالح العريني (قصة)	٥٤
أفراح الأتراح.. عندما تخرج الأنوار من أرحام الظلمات / د. فؤاد البنا (قضايا فكرية)	٥٦
التفاؤل والأمل في قصة يوسف عليه السلام / صالح بن محمد آل طالب (دراسات إسلامية)	٦٠

الإنسان الذي نتوق إليه

إذا رأيتُ إيمان أُمتي في عافية،
فأنا راضٍ بأن أحترق في النيران،
إذ بينما يحترق جسدي يرفل قلبي في النعيم.
(سعيد النورسي)

سنين وسنين ونحن في توق إلى الإنسان الذي ينقذنا، ويضمد جراحنا، ويكون بلسمًا شافيًا لعللنا وأدوائنا، سيما في أيام كهذه، اكفهرت فيها الأجواء، وأطبقت علينا الدنيا بظلماتها، وتعقدت الطرق أمام أعيننا. لقد غدت حاجتنا إليه كالهواء والضياء وإكسير الحياة. إنه المحبوب المنتظر الذي لن نملّ من تفقّده ومحاولة العثور عليه في كل مكان، والتحري عنه من كل إنسان. سيظل محبوبنا ونشيدنا الذي نترنّم به حتى لو يئسنا من وصاله وفقدنا أملنا في لقائه.

كان "ديوجين" قد بلغ به اليأس مبلغه من مجتمعه، ولا يفتأ يذكر قحط عصره من الرجال. ولا أدري هل لمجتمعنا مستوى من النضج يمكنه من تقبُّل هذه الحقيقة؟ نحن أمة في أشد الظمأ لشيء... ظامئون إلى إنسان عظيم يضمنا إلى صدره، يخفف عنا آلامنا، ويبدل ما أصابنا من عادات سيئة.

إن مآسينا في ماضينا وحاضرنا، ترجع إلى فقدان مثل ذلك الإنسان المنتظر... ذلك الذي ينسى حظوظ نفسه في سبيل إحياء غيره... ذلك السامق قامة كالجبال، ذلك الذي يحمل آلام أمته في حنايا صدره وأغوار فؤاده.

كم فردًا من هذا النمط ظهر في تاريخنا القريب؟.. بل كم إنسانًا يدرك أسرار خلقه وغايته؟.. كم إنسانًا أدرك السر الدقيق في خلافة الإنسان لله في أرضه؟..

أجل!.. إن من نبحث عنه يجب أن يكون إنسان قلب في المرتبة الأولى... يستوضح في كل لحظة من حياته كل ما ينغلق عليه من ألغاز... يستوضحها من كل جزء من أجزاء الوجود ويحاول أن يستلهم الجواب من أفق الغيب. بطل القلب هذا متعلق دائمًا بالسماء... يبحث عن الحقيقة وكأنه يبحث عن ماء الحياة، ثم يعبّ منه بعد العثور عليه لكي يترقى إلى مراتب الخلود، ومن ثم يؤسس عالم الإيمان والحب في خلايا المعرفة والعرفان التي أنشأها في عالمه الداخلي. إنه رجل سماوي نحو الخارج فاتح للآفاق، ولدنيّ نحو الداخل مكتشف للأنفس.

إنه ترجمان الوجدان، ولسان الروح، والناطق باسم الطبيعة والكائنات المعبر عنها... إنه بطل الحقيقة الذي وفّى العقل والإرادة حقهما، فانفتحت أمامه أبواب الجنان واحدًا تلو الآخر.

لا يستطيع الجهال الذين لا يأبهون بالبحث عن الحقيقة، ولا النكدون الذين لا يقرأون كتاب الكون، ولا المحرومون من معرفة أعماق عالمهم الداخلي وساحة إرادتهم، أن يشغلوا مكان ذلك البطل الذي نتهلف له ونتوق إليه.

أما هؤلاء الممثلون الزائفون الذين ظهروا في عهود متفاوتة أمام شعوبنا مستغلين فراغ الساحة من الأبطال الحقيقين وغرّوا هذه الأمة، فإنهم لم يحظوا قط بمكانٍ في قلوب الشعوب، ولم ينالوا مرتبة الإنسان المرتقب من قِبلها.

إن الإنسان الذي ظمئتْ إليه هذه الأمة هو رجل فكر تميز بتأمله العلمي، وقَطَف لبَّ المعاني وجوهرها، وسما إلى عالم الملائكة متحدًا مع ذاته وجوهره، متحولاً من ذرة إلى شمس، ومن قطرة إلى بحر، ومن جزء إلى كلٍّ، متخلّصًا من ثنائية الشعور والمادة... رجل يقرأ ويفهم... متضلع بالمعرفة، مكتشف سر السمو بالإيمان ومستنزل بأذواقه الروحية جنات النعيم إلى قلبه.

إن ذلكم الإنسان المرتقب الذي زين قلبه بكل هذه المعاني السامية مع الخلق أيضًا كما هو مع الحق تعالى، ترى في كل تصرّف يسلكه صدقًا وإخلاصًا، وفي كل نغمة يصدرها أنّة من أنين الشعب.

ليس لديه أنانية تسيطر على شعوره، ولا غرور يصيبه حالَ النجاح، ولا صرخة فرح عند الظفر. مشاعره أصيلة صافية مهما بلغ الذرى وكان في أوج الانتصار. لا يسمح للمنافع الشخصية أو الفئوية أن تلوث أفقه الرحب الفسيح. ولا يستطيع الحقد والكراهية أن تكدر صفاء نظرته. الحب والعفو والصفح والصبر على المشاكل التي ترد من محبيه، من أهم الأهداف التي لا يثني أو يتراجع عن تحقيقها.

أما أولئك الذين يريدون بلوغ السعادة التي وعدوا الإنسانية بها عبر دروب الدماء والحرائق، فهم من الوضاعة في السلوك والسخافة في العقول التي تشبه عقول العصافير، بحيث سمحوا لأنفسهم أن يدخلوا في طريق ترفضه كل الكتب السماوية وجميع الديانات. وكم تمنينا لو أدرك شعبنا ما يصنعه هؤلاء الأقزام المتثاقفون من تمثيل أدوار زائفة؛ عندها يستطيع أن يصرخ بهؤلاء قائلاً: "هيا ارحلوا "، ولكن هيهات!.. إن الشعب لم يبلغ بعدُ مثل هذا الوعي، بل لا يزال بعيدًا عنه. ■

(*) الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي. نُشر هذا المقال في مجلة سيزنتي (Sızıntı) التركية، العدد: ١٣ (فبراير ١٩٨٠).

hiramagazine.com

د. سمير بودينار*

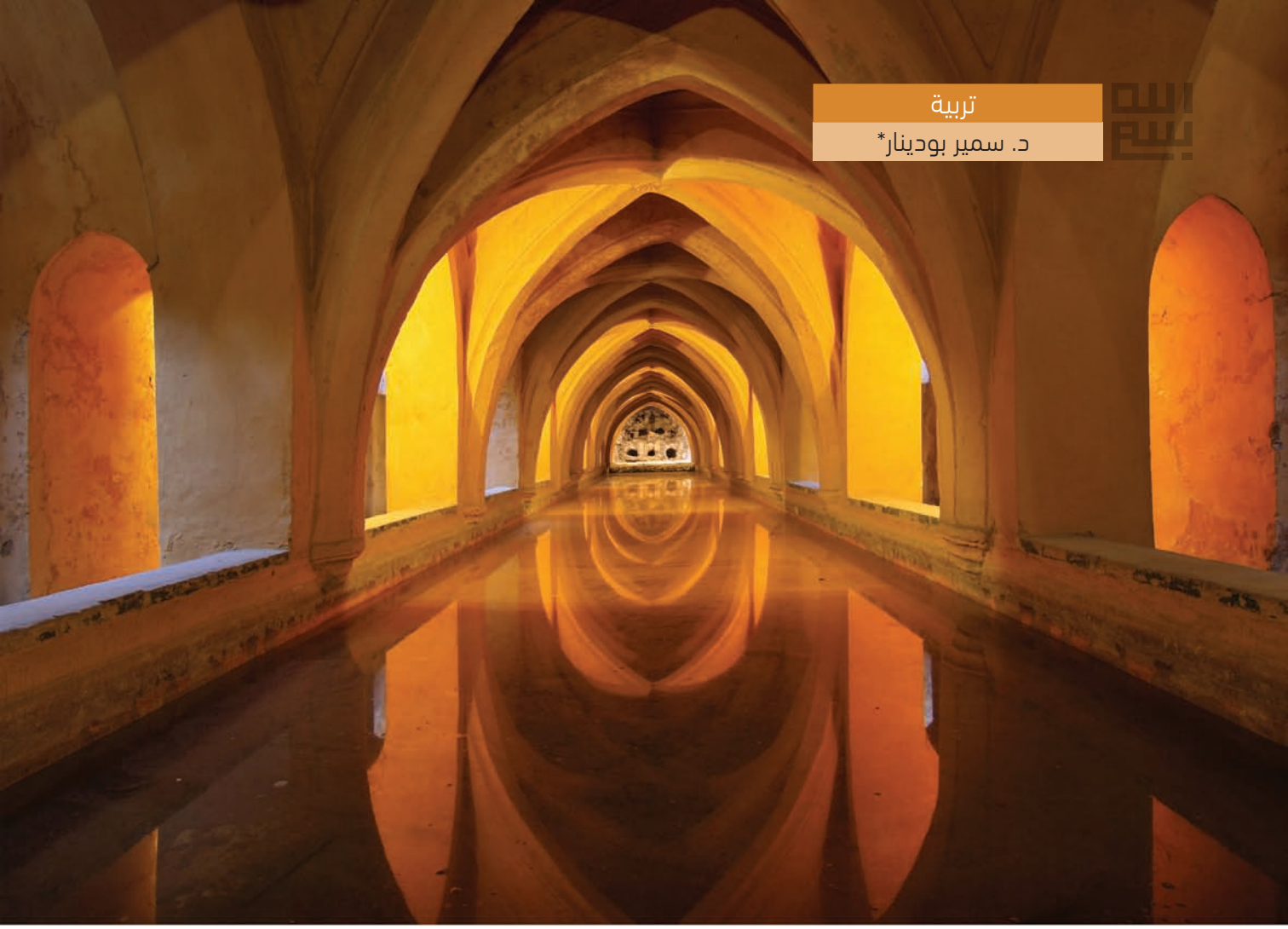

التربية وسؤال القيم

على أي أساس تقوم التربية؟ وهل هذا الأساس من جنس المادة التربوية نفسها، أو هل يمكن لمناهج التربية ووسائطها وطرائقها وتقنياتها مهما بلغ مستوى جودتها وجدتها؟ وكيفما كانت طبيعة الآليات الحضارية التي تنتجها، أن تقوم بنفسها دون الحاجة إلى هذا الأساس في عملية التربية، بوصفها عملية مستمرة على امتداد مسار المجتمع في الزمن.

بعبارة أخرى؛ إن تساؤلاً أساسيًّا يقوم أمام الباحث في مجال -بل مجالات- التربية، خاصة من مقترب "الإطار الناظم" لهذه التربية، والمعرفة التي تسددها أو توجهها على الأقل.

ذلك هو سؤال "المدد المعنوي للتربية". لقد أثبتت تجارب البناء التربوي في مجتمعاتنا المسلمة خلال النصف الثاني من القرن الميلادي الماضي -مرحلة الاستقلالات الوطنية- أن خللاً كبيرًا صاحب عملية التفكير و"البناء" في مجال التربية، إذ في الوقت الذي كان الاهتمام منصبًّا على الوسائل التربوية الأنجح، والمناهج التعليمية الأصلح، ووسائط التربية الأنجع، والوسائل التعليمية الأقدر على إخراج الجيل المتعلم الذي يجمع بين الاستيعاب الواعي والمتبصر للمعارف، وبين القدرة على الفعل الإيجابي (الفعالية) في ذلك الوقت، كانت مؤسسات كاملة، يفترض أنها المؤسسات "القاعدية" في المجتمع، وبما فيها مؤسسة المدرسة نفسها، تعرف حالة من الإفراغ المتسلسل من المضمون الحامل للمعنى أو القادر على إعطائه، فعرفت بذلك مجتمعاتنا المسلمة -وهي تعرف اليوم بدرجة أكبر- حالة من التهميش لدور أساسي من أدوار المؤسسات

المركزية في المجتمع وهو دورها في "صناعة القيم". ما يستدعي وقفة -ولو عابرة- مع هذه القيم وعلاقتها بتلك المؤسسات ذات المهام الخطيرة.

كيف يتحقق "الخلود الوظيفي" للقيم؟

ثمة خاصية أساسية للقيم بوصفها العنصر الأهم في عملية البناء التربوي وبالتالي الثقافي لمجتمع ما. تلك هي خاصية "الخلود الوظيفي"، فالقيم أهداف غير قابلة للإشباع كيفما كان نوعها، فكرية أو أخلاقية، فنشدان الحق وحده، والاحتكام إلى الدليل الأقطع مثله مثل الصدق والوفاء، واحترام الواجبات، والالتزام الأخلاقي مع الغير، والإيجابية، وروح المبادرة.. كلها قيم يحتاجها المجتمع في أي مرحلة من مراحله بلا استثناء، وليس في دائرة الاحتمال بلوغه مرحلة يحقق فيها إشباعًا أو "اكتفاء" من أي تلك القيم، بحيث لا يعود لها دور ولا إليها حاجة.

هذه الخاصية التي تميز القيم، تدعو بالضرورة إلى وجود مؤسسات تقوم بمهمة إعادة إنتاج هذه القيم، بما يحقق الاستجابة لمطلب المجتمع في اكتساب القيم والاستفادة منها بشكل مستمر.

ولعل العلاقة الشرطية التي تربط بين مؤسستي الأسرة والمدرسة في مجال الأدوار والوظائف، تجلي هذه المهمة. فإذا كانت الأسرة هي أول مجالات اكتساب الإنسان لقيم الجماعة التي ينمو داخلها (المجتمع)، أو هي المجال الذي تتشكل فيه شخصية الإنسان بالقوة، فإن المدرسة هي المؤسسة التي تبني شخصية الإنسان "بالفعل" وتسمها بالسمات الثقافية للمجتمع، وتكسبها قيمه، وبالتالي توفر للإنسان المنظومة التي تؤطر فكره وسلوكه، وتزوده بالأدوات المعيارية التي يحتاجها في مسار الحياة، مع كل ما يطرح عليه من قضايا وإشكالات.

وبهذا تكون شخصية الطفل متصلة من حيث البناء بقيم المجتمع عبر قناتي الأسرة فالمدرسة ابتداء قبل غيرهما من القنوات... فيأخذ الفرد عن المجتمع وتستمر القيم بين أجياله مؤدية رسالتها في التفسير، إذ تشكل الرؤية المعرفية، والتسديد إذ تبنى المنظومة الأخلاقية.

القيم وجدلية الفرد والمجتمع والمستقبل

حين تنطبع شخصية الفرد بقيم المجتمع، تكون قادرة على التعاطي إيجابيًّا مع هذا المجتمع نفسه، وعلى التأثير البنّاء في مساره من خلال دوافع الترقي المحكومة بالميزان القيمي الجامع القائم على قاعدة "القرب للصلاح والبعد عن الفساد" بالعبارة الشهيرة.

فحاجة المجتمع الخالدة -خلودًا إنسانيًّا نسبيًّا- إلى القيم إذن، تستتبع قدرة مؤسساته على إعادة إنتاجها باستمرار للاستجابة لتلك الحاجة، وهي حقيقة تمكن من إدراك حجم الأخطار التي تهدد مستقبل مجتمعاتنا المسلمة بالنظر إلى التحديات الهائلة التي تواجه بقاء منظومة القيم في المجتمع من خلال ما يواجه المؤسسات التي تسهم على إعادة إنتاجها باستمرار[1].

وهو أمر يؤكد أن بقاء منظومة القيم مسددة لمسار المجتمع رهن ببقاء المؤسسات التي تنتجها قائمة أولاً، وآخذة عن مصادر ثقافة المجتمع نفسه ثانيًا.

إن هذه الحقيقة تعيد طرح سؤال الإطار الثقافي للتربية، سواء كانت المؤسسة التي تؤديها أسرة أو مدرسة أو غيرهما، السؤال الذي يتجه صوب "المدد المعنوي" لمدرستنا في مجتمعاتنا المسلمة المنطلق من تربيةٍ تقدر تلك القيم، وتحرص على استدامة دورها في صناعة الأجيال، أجيال المستقبل. ■

(*) مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وجدة / المغرب.

الهوامش

[1] لاحظ أن المرحلة التي بدأت مع تسعينيات القرن الميلادي الماضي ولا زالت ممتدة إلى الآن، قد عرفت نقاشات واسعة امتدت إلى مبدأ تكون تلك المؤسسات وطبيعتها، ومحاولات لحصر الأدوار التي ينبغي لها أن تؤديها (الأسرة، المدرسة، وسائط المعرفة والاتصال (مؤسسة الإعلام)، الخطاب الديني (مؤسسة المسجد والتعليم الشرعي...) ما يؤكد أن أشرس معارك هذه المرحلة (مرحلة العولمة) هي تلك التي تخاض على مستوى منظومات القيم الخاصة بالمجتمعات المختلفة في العالم، تحديدًا: المجتمعات غير الغربية، وبشكل أخص، المجتمعات الموصوفة بأنها تحمل عناصر مقاومة عالية في ذواتها الثقافية لـ"قيم العولمة"، أي المجتمعات المسلمة، والمؤسسات التي تنتج تلك القيم.

hiramagazine.com

د. إبراهيم أبو عيانة*

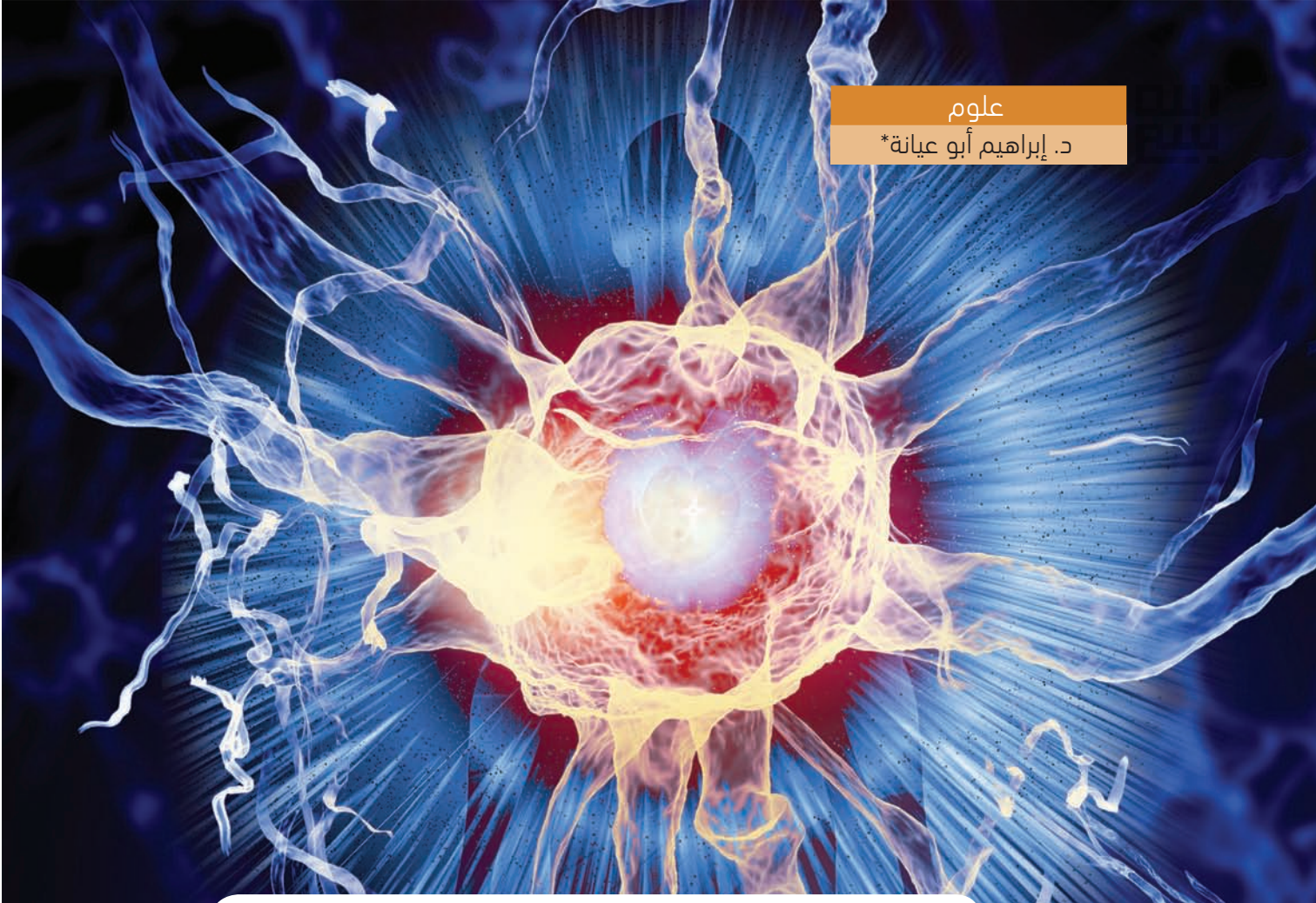

أعظم شبكة اتصالات بيولوجية

إذا افترضنا أن الكائن الحي الذي يتكون من بلايين الخلايا يمثل عالمنا المترامي الأطراف، فكان لابد من وسيلة اتصال بين هذه الخلايا للتنسيق بين وظائفها ونقل المؤثرات والتعليمات المختلفة بين أجزائه.

الاتصال الهرموني

نظام الاتصال الهرموني هو الذي يسمح بنقل الهرمونات -عبر تيار الدم- التي تحمل جميع الأوامر والتعليمات من وسط الكائن إلى جميع أطرافه، ولكن يعاب عليه بُطؤه، لأنه مرهون بسرعة تدفق الدم الذي يحمله من منابع إنتاج الهرمون إلى مناطق تأثيره، والذي تستغرق نحو ١٠ ثوان (نصف زمن دوران الدم حول الجسم). وهذا زمن طويل قد يمثل خطورة على الكائن إذا كانت الأوامر تحتاج إلى رد فعل سريع، كما أنه نظام غير موجه؛ فالهرمون المحمل بالتعليمات، يمر على جميع مناطق الجسم، فيتجاهله من لا حاجة به إلى تلك التعليمات، ويستجيب له الجزء الذي وُجِّهَت إليه هذه الرسالة. ويُعد النظام

الهرموني مثاليًا إذا كانت رسائله خاصة بالنمو أو بالهضم أو التوازن الكيميائي، فلن يُسبب تأخيرها ضررًا للجسم، فهي عمليات تستغرق وقتًا طويلاً ويشترك فيها ملايين الخلايا.

ونظرًا إلى العلاقة الموجبة بين سرعة ودقة استجابة الكائن الحي للمؤثرات الخارجية في بيئته وبين بقائه، نجد أن النظام الهرموني لا يوفر ذلك، فبطء الاستجابة (١٠ ثوان) قد يكلفه حياته، فلابد من وجود جهاز أكثر تخصصًا وأسرع استجابةً للمؤثرات الخارجية، إنه الجهاز العصبي ومركزه المخ وملايين الأعصاب التي تصله بجميع أجزاء الجسم، التي تتميز بسرعتها الهائلة في نقل الرسائل بدقة فائقة ولمسافات قصوى دون انتقال للمادة، وتستهلك قدرًا لا يُذكر من الطاقة، إذ تستقبل مجموعة الخلايا فائقة التخصص -التي تكوّن فيما بينها عضو الحس مثل العين أو الأذن أو الأنف- المؤثر الخارجي التي ترسله فورًا إلى المخ على هيئة نبضات عصبية، فيرسل المخ فورًا إشارات عصبية إلى العضلات أو الغدد التي تستجيب فورًا لهذه الإشارات، كلٌّ بطريقته.

نلاحظ أن الجهاز العصبي يشبه شبكات الاتصالات؛ فالأشخاص لا يتواصلون مباشرة، لكن يصل الطلب إلى مركز الشبكة أو القمر الصناعي الذي يقوم بدوره بتنبيه الشخص المطلوب الحديث معه. فأعضاء الحس ليس بينها وبين العضلات أو الغدد المطلوب استجابتها للإشارة العصبية أيّ اتصال، لكن أعضاء الحس تتصل مباشرة بالمخ الذي يرسل بدورة إشارات عصبية إلى العضلات أو الغدد فتستجيب فورًا، وهذا الأسلوب قمة في التنظيم. فاتصال أعضاء الحس مباشرة بالعضلات أو الغدد، قد يُحدث عدم تناسق بين مختلف الأحاسيس والأوامر والتعليمات القادمة من مراكز الحس، وذلك لكثرتها واختلافها وتداخلها، مِمَّا قد يحدث ارتباكًا شديدًا للكائن الحي، لكن المخ يتلقى كل النبضات العصبية وينظر إليها نظرة عامة، ثم يعطي الأوامر طبقًا للاتجاه العام للمؤثرات الخارجية. والحقيقة أن العين والأذن قمة التخصص في استقبال المؤثرات الخارجية

الخاصة بكلٍّ منهما.

كيفية نقل النبضات العصبية

تنتقل النبضات العصبية، عبر الألياف العصبية، مثل انتقال الحرارة عند اشتعال لفافة تبغ؛ تشتعل ذاتيًّا مُطلِقةً بذلك طاقتها الكامنة، ولا يتأثر اشتعال اللفافة بمقدار أو حرارة مصدر الحرارة، على عكس انتقال نبضات الصوت في أسلاك البرق التي تشبه -إلى حد كبير- انتقال الحرارة في قضيب مسخن بمصدر حراري تقل فيه الحرارة تدريجيًّا متأثرة بمقدار الحرارة، إذ تكون أعلى درجة حرارة عند المصدر وأقلها عند الطرف الآخر.

وتبدأ مسيرة النبضات في الأعصاب تحت تأثير المؤثر الخارجي أولاً، ثم تنتقل بعد ذلك وحدها نتيجة انطلاق جهد كهربي محلي من نقطة إلى أخرى دون أن يتغير حجم النبضة أو طبيعتها أو قوتها مهما كانت المسافة التي تقطعها داخل العصب. وبالتالي فهي تحمل دلالتها على طول الطريق حتى تصل إلى المخ بنفس القوة والمقدار الذي أثر به المؤثر الخارجي.

المدهش أنه لا يوجد اختلاف بين استجابة الألياف العصبية داخل الكائن الحي واستجابتها خارجه، ولا بين الإنسان والحيوان، حتى إن العصب يظل يعمل حتى بعد موت الكائن، بدليل حركة ذَنَب البرص بعد قطعه، أو حركة الحيوان بعد ذبحه.

هذا ما خلص إليه بعض التجارب في هذا الصدد، كما لوحظ انعدام الفرق بين أعصاب الإنسان وأعصاب الحيوان، اللهم إلا التعقيد والتخصص الشديد الذي

hiramagazine.com

تتصف به المراكز العصبية في الإنسان.

كيف تنتقل النبضات داخل الأعصاب؟

لعل ما قام به العلماء يجيب عن هذا السؤال، إذ فُصل عصب حيوان "الحبار البحري" (Maritime Squid) ذو السُّمْك الضخم (يبلغ قطره ملليمترًا واحدًا، أي مئات أضعاف قطر عصب الإنسان) ووُضِع في ماء البحر -موصل للكهرباء لوجود الأملاح به- ووُصِّل السائل بداخل العصب بماء البحر خارجه في دائرة كهربية حساسة تبيّن أنه في الحالة العادية يكون هناك فارق في الجهد الكهربي بين داخل العصب وخارجه يصل إلى ٢٠/١ من الفولت. ويوجد داخل تجويف العصب البروتوبلازم الذي يحتوي على أطراف عديدة سالبة الشحنة تربط في أطرافها عنصر البوتاسيوم ذا الشحنات الموجبة، وهذا ما يفسر دخول عنصر البوتاسيوم عبر غشاء العصب شبه المنفذ من التركيز المنخفض -ماء البحر- إلى داخل العصب ذي التركيز الأعلى (يَبلُغ تركيز أيونات البوتاسيوم أكثر من ٣٠ مرة في ماء البحر)، وهذا عكس ظاهرة الضغط الأسموزي.

الغريب في الأمر أنه لا يمكن مرور تيار كهربي في العصب إلا إذا وصل إلى قدر معين، وتظل استجابة العصب ثابتة مهما تغيرت شدة التيار الكهربي المار فيه، وبالتالي فإن النبضة العصبية الناتجة تكون ثابتة في المقدار، مثل لفافة التبغ لا يمكن أن تحترق إلا إذا وصلت حرارتها إلى درجة الاشتعال، وتظل مشتعلة ذاتيًا مع إهمال مصدر الاشتعال، وقد يصل زمن استجابة العصب للمؤثر الخارجي إلى جزء من ألف جزء من الثانية، وتصل سرعة النبضة العصبية إلى ٧٢ كيلومترًا/ساعة وهي سرعة محسوسة. وبالتالي فالإحساس ينتقل من اليد إلى المخ في نحو ٢٠/١ من الثانية. ويستطيع العصب نقل ١٠٠٠ نبضة عصبية في الثانية الواحدة تحت الظروف العادية دون كللٍ أو مللٍ، وتتأثر حساسية الأعصاب بالبرودة فيقل عدد النبضات المنقولة.

ولا علاقة بين الإرهاق الذي يصيب الإنسان وكفاءة العصب إذ يستطيع العصب نقل ١٠٠ نبضة في الثانية لساعات طويلة تحت ظروف الإرهاق الشديد الذي ثَبتَ أنه حالة تتعلق بالمخ ذاته أو النخاع الشوكي، ولا ترتبط بالعصب، ولكن يلزم تدفق الدم في العصب لكي يقوم بعمله، ولا يرجع ما نشعر به من تنميل في الساق عند وضع ساق على أخرى إلى قلة تدفق الدم في القدم، لكن الحقيقة أن التنميل يحدث بسبب الضغط الواقع على العصب الواقع في الناحية الخارجية من الساق أسفل الركبة مباشرة بين عظمة الفيبيولا وركبة الساق السفلي، ولا تحتاج عودة الإحساس إلى العصب إلا إلى دقائق معدودة، لأن الضغط على العصب لا يسبب له أي تشوهات وإلا احتاج الأمر إلى أسابيع. لكن ما يؤثر على الأعصاب هو انقطاع الأكسيجين عنها فقد يُسبب ذلك شللاً مؤقتًا للعصب لـ ١٥ دقيقة، بينما غيابه يصيب المخ بالشلل فورًا، والسبب في ذلك أن احتياج الأعصاب إلى الأكسيجين ضئيل جدًّا، فعصب الضفدع (ينقل ٢٥٠ نبضة عصبية في الثانية) يحتاج إلى قدر حجمه من الأكسيجين -حجم غاية في الضآلة- ليعمل بكفاءة لمدة ثلاثة أيام.

ولعل ما يفسر وقوع الأرنب بين فكي كلب يطارده ليس انفجار قلب الأرنب كما كان يُعتقد، بل تلف خلايا مخ الأرنب نتيجة تدفق الدم الشرياني الساخن إليه، في حين أن الكلب وكثيرًا من الثدييات تمتلك نظامًا لتبريد الدم قبل تدفقه للمخ، وما نلجأ إلى عمل كمادات على رأس مريض الحمى، إلا لخفض درجة حرارة المخ للحفاظ على وظائف المخ التي تختل إذا زادت حرارته ٤ درجات مئوية على الطبيعي. ولقد منح الله معظم الثدييات وسيلة لتبريد المخ إما لهثًا وإما عرقًا فمخ الغزلان تقل حرارته درجة واحدة في الوضع الطبيعي و٣ درجات عن حرارة أجسامها في أثناء العدو، لأن نظام تبريد المخ لا يعمل إلا تحت ظروف الإجهاد الشديد.

المخ عضو فريد لا مثيل له في الكون، فهو يُحكِمُ رقابته على كل شيء، وهو الآمر الناهي في جسم الكائن الحي، ويتكون من أكثر من ١٠٠ ألف مليون خلية قطر كل منها ٠,١ ملليمتر وتتكون من فرع رئيسي يسمى الأكسون، وعدة فروع ثانوية تسمى "Dendrites"،

hiramagazine.com

وتتبادل هذه الخلايا الإشارات العصبية في ما بينها، إذ تكون الإشارات مزدوجة في وسيلة الانتقال؛ كهربية في مرحلة وكيميائية في المرحلة النهائية، ويعتمد عمل المخ على نقل المعلومات بين خلية وأخرى وكل خلية عصبية مؤهلة لذلك تمامًا، لأن كلاً منها تمتلك ١٠٠٠-١٠,٠٠٠ نقطة اتصال تسمح لها بنقل ما تملكه من معلومات إلى غيرها من الخلايا العصبية، ولها القدرة على تلقي معلومات من ١٠٠٠ خلية عصبية أخرى، وينتج عن ذلك أعظم ما يميز مخ الإنسان من غيره من الكائنات وهو القدرة على التعلم والتذكر. وبسبب تعقيد عمل المخ الشديد وعمله الدؤوب فإن استهلاكه من الأكسيجين يزيد على ٢٠٪ من استهلاك الجسم الكلي، كما أن ذلك ثابت ليلاً ونهارًا، ولأنه لا يستطيع الحصول على الطاقة إلا من الجلوكوز فإن انقطاع تيار الدم الحامل للأكسيجين عن المخ يُفقد الشعور في ١٠ ثوان مسببًا أضرارًا بالغة بالمخ، وعند غياب الجلوكوز يصاب الإنسان بغيبوبة.

ولحساسية خلايا المخ الشديدة فهو معزول عن الدورة الدموية العامة بنظام يعرف بـ"حاجز الدم-المخ"، وهذا الحاجز يَسمح بدخول ما تحتاج إليه الخلايا من أكسيجين وجلوكوز ومواد أخرى، لكن يمنع دخول أي جزيئات سامة أو غير مرغوب فيها إلى خلايا المخ لحمايتها والمحافظة عليها، وتعود كفاءة هذا الحاجز إلى وجود جدار من الخلايا يسمى "Glial Cells".

إذن كيف يقوم المخ بمهامه؟

إن أغلب الموادّ الناقلة للإشارات العصبية (جزيئات كيمائية صغيرة تحتوي على النيتروجين) تتركز في نهايات الأعصاب، وتنقسم هذه الناقلات من حيث فعلها إلى مجموعتين: الأولى ذات أثر منشط والأخرى ذات أثر مثبط، وقد ينقلب المثبط إلى منشط، وبالعكس. أهم الناقلات ذات الأثر المثبط هو الحمض الأميني جاما أمينوبيوتيريك ويُعرف بـ"جابا" (GABA) وهو حمض لا يُصنع إلا في المخ أو الحبل الشوكي وينجز هذا الحمض ٣٠٪ من عمليات نقل الإشارات العصبية، وهناك حمض الجلوتاميك، وله أثر منشط ويقوم بنقل الإشارات العصبية.

يتم أولاً تخليق المادَّة الناقلة داخل الخلية العصبية من أقرب الموادّ شبهًا بها، ثم تنتقل من جسم الخلية إلى نهايات الأعصاب، حيث تختزن داخل حويصلات خاصة تحميها من فعل الأنزيمات المحللة، وتحتوي كل حويصلة على نحن ١٠٠,٠٠٠ من هذه الجزيئات، وعند وصول نبضة عصبية -على هيئة إشارة كهربية- إلى نهايات الأعصاب تنتج كمية كبيرة من أيونات الكالسيوم، مِمَّا يؤدي إلى إطلاق جزيئات المادَّة الناقلة في الفراغ بين نقطة اتصال الخلايا بالقرب من غشاء الخلية، حيث تتلقى النبضة أو الإشارة فتتفاعل المادَّة الناقلة مع بعض مواقع الاستقبال (جزيئات بروتينية) الموجودة بغشاء الخلية المستقبلة للنبضة، وبذلك تصل الرساله من خلية إلى أخرى. وليست في الأمر أي عشوائية، فلكل نوع من الموادّ الناقلة موقع خاصّ تستطيع أن تتداخل فيه جزيئاتها مثل القفل ومفتاحه، هذا التداخل يُغير الشكل الفراغي للبروتين المستقبل، مِمَّا ينتج عنه نبضة أو إشارة منشطة للخلية أو مثبطة أو قابضة لعضلة ما أو مفرزة لهرمون معين... إلخ، إذ تترجَم شفرة النبضة وينتج رد الفعل الذي قد يستغرق جزءًا من الثانية أو دقائق أو عدة ساعات. ولك أن تتخيل مدى الدقة التي يتم بها هذا الاتصال اللحظي، كي يعاد استخدام جزيئات الموادّ الناقلة ثانية، أو عدم استمرار تأثير النبضة العصبية.

جميل أن نحاكي خلق الله ونتعلم منه، لكن يجب أن نكون على يقين تام وقناعة راسخة بأننا لن نبلغ هذا الإبداع الإلهي. فكيف لخلايا مجهرية وأعصاب لامتناهية الدقة أن تكون أعظم شبكة اتصالات بيولوجية على الإطلاق، غاية في الدقة، تنفذ آلاف الأوامر في جزء من ألف جزء من الثانية، تَنعدِم فيها نسبة الخطأ، ويستحيل اختراقها بكل السُّبل، يتحكم فيها جهاز لا يتعدى وزنه ١,٢ كيلوجرام، لا تتعجب، إنها صنع الله الذي أتقن كل شيء، إنه خبير بما تفعلون. ■

(*) باحث في معهد بحوث تكنولوجيا الأغذية / مصر.

hiramagazine.com

أ.د. الشاهد البوشيخي*

القرآن روح الأمة الإسلامية

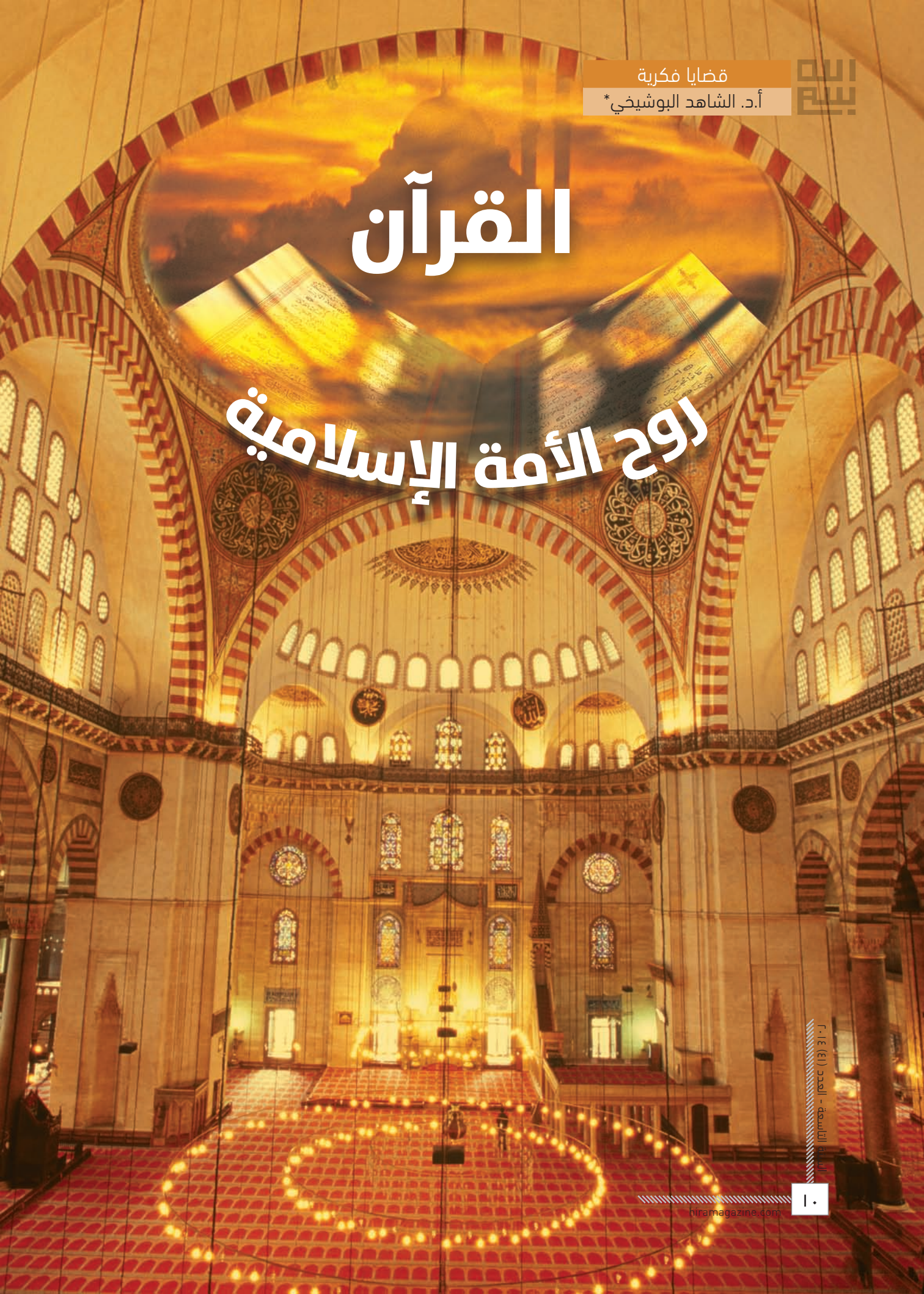

قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الشورى:٥٢).

القرآن روح

الرُّوح ها هنا هي كتاب الله ﷻ، هي التعبير عن سرّ الوحي المُشعِر بأنه يُحدِث في الإنسان من الخصائص، ما تُحدِثه الرُّوح حين تُنفَخ في الإنسان لتُصَيِّرَه خَلقًا آخَر. فإن الإنسان يُجمَع خَلقُه في بطن أُمّه أربعين يومًا نُطْفةً، ثم يكون علَقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مضغةً مثلَ ذلك، ثم يُرسَل إليه الملَك فتُنفَخ فيه الرُّوحَ، فيصير بذلك خَلقًا آخَرَ غيرَ الخلق الأوَّل.

إن الإنسان -الفرد والمجتمع معًا- يصير بالقرآن خَلقًا آخر، لكون هذا القرآن ذا طبيعة تشبه طبيعة الرُّوح تمامًا، لذلك كان التعبير فيه كالتعبير في الرُّوح، ففي الرُّوح قال الله ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾(الإسراء:٨٥)، وها هنا قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾(الشورى:٥٢)، نفس اللفظ تقريبًا في الآيتين، روح من أمر الله، والرُّوح هي من أمر الله.

أثر رُوح القرآن في "الإنسان الفرد"

هذا الكتاب عُبِّر عنه بـ"الرُّوح" إشارة إلى هذه الوظيفة التي يقوم بها في الإنسان. فالإنسان قبل أن يَسرِيَ ماء القرآن في عروقه وكيانه، يكون مَيتًا بصريح القرآن: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾(الأنعام:١٢٢).

أمَّا عندما يخالط هذا القرآنُ قلبَه، ويَسري منه كما يَسري الدَّمُ في مجموع الكِيان، فإنه يصير -فعلاً- شيئًا آخَر من حيث طاقاته وتصوُّراته وأفكاره وقدراته وإمكاناته ومُنجَزاته... لأنه بالقرآن يهتدي إلى ربه ويعرف مولاه سبحانه وتعالى، فيتوكل عليه حق التوكُّل ويستمدُّ منه كل شيء. فمن اسمه "القويّ" يستمدّ القوّة، ومن اسمه "العليم" يستمدّ العلم، ومن اسمه "الحكيم" يستمدّ الحكمة، ومن اسمه "الرحمن" "الرحيم" يستمدّ الرحمة... يُفِيضُ الله عليه -بفضله ورحمته- من أنوار أسمائه سبحانه وتعالى، فيَشيع في كِيانه ما يَشيع، ويَصير طاقة غير عاديَّة إذا قُورِنَ بما كان عليه قبلُ. ولنستحضر النماذج الأولى على سبيل المثال:

إن رُوح القرآن إذا نُفخَت في الأُمَّة أثمر فيها كلُّ تلك الوظائف التي سبق الحديث عنها، وهي وظيفة الحياة، ووظيفة النور، ووظيفة الهداية، ووظيفة الخروج من الظلمات إلى النور، ووظيفة الشفاء، ووظيفة الرحمة.

النموذج الأول وهو النموذج الأكمل، رسول الله ﷺ، ماذا كان ﷺ بغير القرآن؟ وماذا صار بالقرآن؟ خلال أربعين سنة قبل أن تَنزل عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾(العلق:١)، ماذا استطاع ﷺ أن يفعل في الجزيرة العربية؟ ماذا استطاع أن يفعل في النفوس، في الرجال، في الجماعات، في بطون العشائر والتاريخ؟

لكن بابتداء نزول القرآن، بابتداء تَنزُّل هذه الرُّوح، صار خَلقًا آخَرَ تمامًا. كان "بَشَرًا" فازداد على ذلك ﴿نُوحِي إِلَيْهِ﴾(الأنبياء:٢٥)، وحين أُوحِيَ إليه هذا القرآن صار هو نفسه نورًا مُنِيرًا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(الأحزاب:٤٥-٤٦)، تَنوَّر ﷺ بنور القرآن: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾(المائدة:١٥) فصار سراجًا منيرًا. وكل مسلم يَسري في كِيانه القرآن، سيكون له نورًا قطعًا، لكنّ لكلٍّ نورًا حَسَبَ الاستعداد ونوع الطينة والمعدن. إذن صار الرسول الكريم ﷺ بهذه الرُّوح مولودًا جديدًا فأحدث ما أحدث في التاريخ إلى قيام الساعة... عَجن الجزيرة العربية عجنًا آخَر، وجمَع إنسانها المُفرَّق المُشتَّت جمعًا، ثم صاغه صياغة جديدة في صورة تجمُّع بشري عالي المستوى، عالي الكيف، به أنجز العرب المسلمون ما أنجزوا عبر التاريخ من تلك الفتوحات التي سرَت في الكرة الأرضية مسرى

hiramagazine.com

النور، ضاربة في أقاصي الغرب وأقاصي الشرق.

النموذج الثاني هو عمر بن الخطاب ﷺ. ماذا كان عُمَرُ قبل القرآن؟ ماذا كان قبل أن يُنفخ فيه روح القرآن؟ كان راعيَ إبِل، إنسانًا مثل جميع الناس. لكن بمجرد أن نُفخ فيه روح القرآن وسرى فيه نور القرآن، وتَمكَّن القرآن من قلبه وعقله وكِيانه، نجده يتحوَّل إلى طاقة كبيرة، تُضرَب بها الأمثال في القدرة على الإدارة ومواجهة التحدِّيَات والمستجدات، على اتساع المكان وامتداد الزمان وتنوُّع الإنسان، فهل كان عمر ﷺ يُطيق شيئًا من ذلك أو يحلم بالقدرة على شيء من ذلك لولا روح القرآن؟

النموذج الثالث هو عبد الله بن مسعود ﷺ، هذا الراعي الصغير النحيف، كيف تَحوَّل بعد أن نُفِخَ فيه روح القرآن؟ كيف تَحوَّل فأصبح يتحدَّى جميع القُرَشِيِّين، ويقرأ عليهم القرآن جهارًا في وقت لم يكُن يستطيع فيه أحد أن يُعلن القرآنَ على الملأ؟

النموذج الرابع هو بلال بن رباح الحبشي ﷺ، وقصته معلومة عند الجميع... وهكذا.

كل تلك الأحوال التي أصبحت لهؤلاء الرجال، إنما هي بسبب ذلك المعنى الجديد الذي حَلَّ فيهم، معنى القرآن الذي له خاصية الرُّوح الذي به يتحول الكِيان المادِّيُّ الطيني خَلقًا آخَر، كما تحولت طِينة آدم عليه السلام فاستَحقَّ السجودَ له بعد أن نفخ الله فيه من روحه.

أثر روح القرآن في "الإنسان الجماعة"

حدث هذا في الأفراد، ومثل ذلك حدث -ويَحدث- في الجماعة والجماعات، والقرآن الكريم يُحدث أيضًا في الكِيان الجماعي العامّ تأثيرًا كتأثير الرُّوح أيضًا، فيوَحِّد جزئياته ويضمُّها ضَمًّا. لِنقارن حال الميت عندما تغادره الرُّوح، إذ يتحلل تحلُّلاً كاملاً إلى عناصره الأوَّلية الترابية وغيرها، وتتبدد تلك العناصر، ويذهب كل عنصر إلى جهته ليَلتحم بعنصره الطبيعي في الأرض. ما الذي غادر هذا الكِيانَ بالموت؟ يموت الشخص ونحن ننظر إليه، ما تَغير فيه شيء، ولكن تَغيَّر فيه كل شيء. ما الذي غادره؟ غادره شيء اسمه الرُّوح. الرُّوح إذن هي التي وَحَّدت كِيانه وكانت تمنعه من التحلُّل والتجزُّؤ، وتبرُّؤ بعضِه من بعض، تلك الرُّوح هي التي أعطَته كل تلك الإحساسات، وكل تلك القدرات.

نفس الأمر يُقال عن الجماعة المؤمنة أو الأُمَّة الإسلامية، وإن تمثلت في صورة صغيرة. إنها عندما تحِلُّ فيها هذه الرُّوح (أي في مكوِّناتها من أفراد وأسر وجماعات) تتحول من حيث الطاقة ومن حيث الفاعليَّة ومن حيث التأثير، إلى خَلق آخر. وإن رسول الله ﷺ ما استطاع أن يفعل ما فعل في الجزيرة العربية إلا بهؤلاء الذين حلَّت فيهم روح القرآن فتَجَمَّعوا في صورة كِيان موحَّد عَبَّر عنه رسول الله ﷺ بالجسد: "مَثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمَثَلِ الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهَر والحُمَّى" (رواه مسلم)؛ شَبَّه جميع المؤمنين في علاقة بعضهم ببعض بالجسد، وإنه -وأيم الله- لا يوجد مثال يمكن أن يُشخِّص فيه الإنسان معنى الالتحام الكامل، والتوحُّد التامّ، والتضامن، والتلاحم والتراحم التامّ، كمثال الجسد الواحد. ودونك هذا المثال: أنت تسير بسرعة كبيرة، فتبصر عينك -فجأة- هُوَّة سحيقة أمامك، تنقل العينُ بسرعةٍ الخَبَرَ إلى مركز التحليل في الدماغ، فيعطي الجواب بسرعةٍ فيُصدِر أوامره إلى الرِّجل وإلى الكِيان كله، فيتحول إلى وجهة أخرى. هذا التسانُد والتلاحُم والتكامُل والبناء بهذا التفاعُل بهذه الصورة، لا سبيل إلى تصويره بغير الجسد الواحد.

فما الذي يُحِيل هذه الأجسام المنفصلة المتفرقة إلى جسم واحد له هذه الإحساسات، وهذا الالتحام، وهذا النوع من العلاقة في أجزائه، وفي نوع الأجهزة التي يتكوَّن منها، وفي علاقة هذه الأجهزة بعضها ببعض، في تخصُّصاتها، وتكامل تخصُّصاتها، وسيرها عَبْر مركز كبير يوجِّهها؟

كل ذلك إنما كان بفضل رُوح القرآن، لذلك يجب العمل على أن نُحِلَّ فينا رُوحَ القرآن لنَحيا، لننتقل من حالة الموت إلى حالة الحياة، من حالة التشرذُم إلى حالة الأُمَّة الحيَّة الملتحمة.

أثر روح القرآن في "الإنسان النوع"

hiramagazine.com

وإذا كان الميت لا حَول له ولا طَول، فإن الحَيَّ على قدر نوعية كينونته تكون تأثيراته في الكون. والإنسان طراز خاصّ من المخلوقات، ويُشعِر بذلك أنه ﷻ استخلفه في أرضه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠)، وأنه تعالى أَسْجَدَ له ملائكتَه وجعلهم حَفَظة له، وسَخّر له كل ما سواه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(لقمان:٢٠). فهو مخلوق من طراز خاصّ، ذو قدرات عالية جدًّا. ومن لفظ الخليفة، نشعر بتكامل الأجيال الذي شرحته آيات كثيرة، منها: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾(الأنعام:١٣٣). فـ"الخليفة" من معانيها: الكائنُ الذي يَخلُف بعضه بعضًا، أي الخلافة المادية العادية نتيجة الكبير الذي يموت والصغير الذي يأتي، والخلافة في تداوُل أمر الدنيا والسيادة على الدنيا كما قال رسول الله ﷺ: "إن الدنيا حُلْوة خَضِرة، وإن الله مُستخلِفُكم فيها فينظرُ كيف تعملون" (رواه مسلم). وبهذا الامتداد في الخلافة يستطيع الإنسان أن يُنجِز أشياء عظيمة لا تخطر على بال، والأجيال اللاحقة تُنجِز أشياء لم تكُن تخطر قَطّ على خاطر الأجيال السابقة، وبتكامل الأجيال من لدن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة، تتمُّ رسالة الإنسان -فعلاً- على وجه الأرض، وتتمّ الخلافة، وتؤدَّى الخلافة. فالإنسان نوع يخلُف بعضه بعضًا، وإن الذي استُخلف في الأرض ليس هو آدم وحده، وإنما جنس آدم، وهو المستخلَف حَسَب نظام الاستخلاف، وهذا يقتضي تراكُم هذه المعرفة، وتكامُل العلم الإنساني الذي أصله من الله ﷻ لا من سواه. فما مِن علمٍ يدور في هذا الكون على يد هذا الإنسان -كافرًا كان أو مؤمنًا- إلا أصْلُه من الله ﷻ، من الهدى النازل من عنده جلَّ ذِكرُه، ومن الهدى المودَع في الإنسان الذي تشير إليه الآية: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠)، والله هو الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم -بالوحي وبغير الوحي- وإن كان العلم الذي جاء به الوحي هو علم العلم، لأنه علمُ الميزان: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥).

إذا نُفِخَ في الأمة روح القرآن، ظهرت فيها أمارات الحياة، ومن أمارات الحياة "الإحساس"، أي إحساس بعضها ببعض إحساسًا سليمًا، فإذا اشتكى منها مصرٌ أو قُطْرٌ، تداعى له سائرُ الأمصار والأقطار بالعون والنُّصرة والتأييد.

حراء

كيف تَحل فينا "رُوح" القرآن؟

فهذه الرُّوح ينبغي أن نجتهد في أن نُحِلَّها فينا، ولا يكون ذلك إلا بالإقبال على كتاب الله ﷻ تلاوةً وفهمًا وعملاً وتبليغًا، لأن نجاة الإنسان -كلّ إنسان- لا سبيل إليها إلا إذا قام بهذه الوظائف الأربع: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾(العصر:١-٢)؛ خُسر دائم مستمرّ، ينزل دائمًا تحت "خُلِقَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"، ثم رَدُّه الله إلى أسفل سافلين، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر:٣). إذا قام الناس فقط بواحدة (آمَنُوا)، ولكن لم يعملوا الصالحات ولم يتواصَوْا بالحَقّ ولم يتواصوا بالصبر، فلن يَنْجُوا من الخسران أبدًا... فالآية ترفض ذلك ولا تقبل به، والواقع كذلك يرفضه. إن الإنسان إذا لم يتحول إلى عنصر مُشعّ وإلى نَبْع فَيَّاض، فإنه حتمًا سيُدَنَّس في يوم ما، حتمًا سيُمكن للنجاسة أن تستقرّ فيه بصورة من الصُّور. لكن إذا كان باستمرار يرسل الخير، يفيض منه الخير، يدعو إلى الخير، يفعل الخير، فإنه يصير غير قابل لاستقبال الشَّرّ، لأن القابلية فيه تنعدم، لأنه مشغول -باستمرار- بدفع الخير إلى الغير. إنه كالماء إذا لم يتحرك أسِنَ ونَتِن، أما إذا كان يجري فإنه يَطْهر، والمؤمن إذا ظلّ فقط يؤمن ويعمل الصالحات في عمومها، ولم يُوصِ بالحق ولم يبلّغ الحق ويتحمَّل تكاليف تبليغه، فإنه لا يكون جاريًا، ولا يكون كالماء الجاري طاهرًا، لذلك لا بد ممَّا ليس منه بُدٌّ.

أمة "الشهادة" على الناس

نحن أُمَّةٌ ليست كالأُمَم، نحن أُمَّة من طراز خاصّ، الله أخرجها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾(آل عمران:١١٠)، ولم

hiramagazine.com

يقُل "خَرجت للناس" ولكن قال ﴿أُخْرِجَتْ﴾، هناك مَن أخرجها ولم تَخرج لذاتها، ثم إنها أُخرجَت للناس، فهي بطبيعتها إذن أُمَّة الدعوة. لذلك رأى بعض علماء الاجتماع المسلمين أنه ينبغي أن يضاف في تعريف المسلم أنه داعية. فحينما نقول "المسلم"، فمعناه هو ذلك الإنسان المؤمن بالله الداعي إليه، لأن صفة الإسلام مرتبطة في صميمها -من حيث التطبيق التاريخي ومن حيث واقع النصوص- بالدعوة إلى الله ﷻ. نحن أُمَّة الشَّهادة على الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾(الحج:٧٧)، هذه ممهِّدات، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾(الحج:٧٨). هنا دخلنا، والجهاد يَبْتدئُ -أولُ ما يَبْتدئُ- بجهاد الدعوة: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان:٥٢)، أيْ بـ"القرآن" ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾، ها هنا يبتدئ الأمر، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ حتى ذروة السَّنام، ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ فهذه نقطة الإخراج، هو الذي اختاركم اختيارًا لهذا الدِّين. وفعلاً هل آمن أحد منَّا أو اهتدى إلى الإيمان بمحض عمله؟ أيَّ نعمةٍ أسلَفَ قبل أن يكون مؤمنًا فيستحقّ بها نعمة الإيمان؟ جميع من آمن، آمن بمحض تَفضُّل الله ﷻ ورحمته، حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما استحَقُّوا ما استحقوا بمحض فضل الله ﷻ ورحمته: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾(الضحى:٧)، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾(البقرة:١٩٨). فبمحض الرحمة الخالصة كان هذا الإيمان وكان هذا الخير على كل أحد، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا﴾(الحج:٧٨)، وهذا هو المقصود: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، ما الوظيفة؟ هي وظيفة رسول الله ﷺ نفسها، هي وظيفة أتباع رسول الله ﷺ، ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾(النساء:٤١)، وأنتم أيضًا ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(البقرة:١٤٣)، وكلُّ جيل يَشهد على الجيل الذي يليه، وكلٌّ حَسَب مستواه، فالأعلَم الأكثر حظًّا من ميراث رسول الله ﷺ، وهو الأكثر شهادة.

أحد علماء الاجتماع المسلمين في هذا العصر، أدخل هذه الصفة، أي "صفة الدعوة" في تعريف المسلم نفسِه، وأنه لا يكون مسلمًا على الحقيقة حتى يكون مبلِّغًا لهذا الخير، متحمِّلاً في سبيله ما كَتب الله له، لذلك يجب على كل واحد منّا، وعلى المسلمين جميعًا، أن يجتهدوا في إشاعة هذا الخير لتحُلَّ هذه الرُّوح أيضًا في سِواهم، ولتحُلّ في كل المسلمين بإذن الله تعالى، فيَصيروا بذلك في وضع جديد هو الوضع الذي نحلم به جميعًا، وهو أن نصير جميعًا -من أقصى الكرة الأرضية إلى أقصاها- أُمَّة واحدة كما أراد الله لنا، ولن نصير كذلك إلا بالرُّوح الواحدة التي تجمعنا، روح القرآن التي يجب أن تحُلّ في الأفراد وفي المجموعات والأقطار، ولتحُلّ بعدُ في الجسم كله.

ضرورة فهم "رسالة" القرآن

إذا شعرنا بذلك تمام الشعور، فإن الواجب يتجه أولاً إلى تَفهيم المراد بهذا الدين وبهذا القرآن، ذلك بأن القرآن رسالة مرسَلة على يد رسول الله ﷺ يُبلغها إلى الناس: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾(الأنعام:١٩). هذه الرسالة آتية من رب الناس، ملك الناس، إله الناس... وإذا لم نعرف هذه الرسالة ولم نقرأها كلها، فكيف سنفهم المراد؟ فكيف سنطبق المراد؟ وكيف سيحصل لنا المراد من المراد؟ وإذا اكتفينا بقراءة هذه الرسالة ولم نفهمها حصل إشكال كبير. لذا يجب أن نقرأ ونفهم، لأننا إذا لم نفهم المراد فكيف سنجيب عن المراد يوم لقاء الله ﷻ، وكيف نستطيع في هذه الحياة الدنيا أن نستفيد من هذا المراد؟ لأن الله ﷻ أرسل هذا الخير لإسعاد البشرية، وليحيا الناس حياة طيبة ليصيروا طيبين: ﴿تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾(النحل:٣٢)، طابوا مَطعمًا، ومَشربًا، وتعبيرًا، وتفكيرًا، وأعمالاً، وأحوالاً حتى صاروا طيّبين فيقال لهم: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾(الزمر:٧٣)؛ طبتم في الدنيا فادخلوا إلى الدار الطيّبة لتتمتعوا بالطيّبات الأخروية، ادخلوا إلى دار السلام: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(الزمر:٧٣).

hiramagazine.com

وجوب معرفة "العربية" لفهم القرآن

إذا لم نفهم المراد من هذه الرسالة فلن نستطيع الاستفادة منها، وهذا يُوجِب على كل مسلم أن يعرف لسان القرآن لأنه نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾(الشعراء:١٩٥)، وأي حيلولة بين المسلمين ومعرفة هذا اللسان وإتقانه لمعرفة المراد من القرآن، يُعتبر جريمةً كبرى ومنكرًا كُبَّارًا. فعلى المسلمين أن يُحسُّوا بهذا الأمر الإحساس الذي ينبغي له، فيجتهدوا في تعلُّم هذه العربية وتعليمها وتذويق الناس أسرارها، لأنها المدخل الأساسي لمعرفة كتاب الله ﷻ.

واجب وزارات التعليم في العالم الإسلامي

وها هنا يَعظُم واجب وزارات التعليم في العالم الإسلامي، وتَعظُم مسؤولية المؤسَّسات التعليمية، وتَعظُم مسؤولية رجال التعليم، وتَعظُم مسؤولية المشرِّعين للتعليم والمنفِّذين له، وتَعظُم المسؤوليات بصفة عامَّة. وإنه لَواجب أيُّما واجبٍ أن يُجتهد فعلاً في الإلحاح على جعل هذا التعليم قرآنيًّا، ينطلق أولاً من القرآن: يُعلَّم القرآن، يُحفَّظ القرآن، يُفهَّم القرآن، يُحرَص على أن يُسبَك هؤلاء الأطفال الذين فُطِروا على الإسلام على مراد القرآن، أن يُسبَكوا على مضمون القرآن، كُلٌّ يفعل من ذلك ما يُطِيق ويدفع في هذا الاتجاه بما يُطِيق، لأن فهم المراد من القرآن هو السبيل إلى تطبيق القرآن، وتطبيق القرآن هو الهدف من إنزال القرآن، إذا لم يُفهَم القرآن ولم يُعمَل بالقرآن فكيف تتصوَّر الاستفادة من القرآن؟ إن مَثَل ذلك كمَثَل شخص جاءك يطلب أن تدلَّه على مكان بعينه، فدَلَلتَه دلالة دقيقة، ورسمتَ له مصوِّرًا الطريق الموصِّل رسمًا دقيقًا جدًّا، ولكنه بدلاً من أن يتبع ذلك ليصل أعرض عنه، فهل يستفيد هذا الشخص؟ لا، مستحيلٌ أن تصل إليه نتائج ذلك الإرشاد وتلك الدلالة. فالقرآن هُدًى فعلاً لمن اتبعه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾(المائدة:١٦)، أما من لم يتَّبع فلا سبيل له إليه. لذلك يجب إزالة هذه الحواجز الكثيرة المتراكمة بيننا وبين القرآن: حاجز اللغة، وحاجز القراءة، وحاجز الفهم، وحاجز التطبيق... كما ينبغي إزاحة الصوارف التي هي ضروب من العوائق. إن الصوارف عن تطبيق القرآن هي موانع

فما مِن علمٍ يدور في هذا الكون على يد هذا الإنسان كافرًا كان أو مؤمنًا، إلا أصْلُه من الله ﷻ، من الهدى النازل من عنده جلَّ ذِكرُه، ومن الهدى المودَع في الإنسان.

حراء

من تطبيق القرآن، فالمُلهِيات بجميع أشكالها تُلهِي عن القرآن: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(لقمان:٦)، هناك من يشتري "لَهْوَ الْحَدِيثِ"، ومن يصدِّره، ومن يوزِّعه، ومن يُنتِجه... وها هنا أيضًا تأتي مسؤولية وزارات الإعلام في العالم الإسلامي، وتأتي مسؤولية الجمعيات الناشرة للخير أو التي ينبغي أن تنشر الخير، ومسؤوليات مَن يحاضر ومَن ينتدي، ومِن كل موزِّعٍ للعلم وناشرٍ للثقافة.

الآثار المرجوَّة لـ"نفخ" روح القرآن في الأمة

بمثل هذه الجهود المتواصلة المتساندة المتكاملة، يمكن -إن شاء الله تعالى- أن تُنفَخ في هذه الأُمَّة روحُ القرآن، فإذا نُفِخَ فيها من رُوحه (القرآن) ظهرت فيها أمارات الحياة، ومن أمارات الحياة "الإحساس"، أي إحساس بعضها ببعض إحساسًا سليمًا، فإذا اشتكى منها مصرٌ أو قُطْرٌ، تَداعى له سائرُ الأمصار والأقطار بالعون والنُّصرة والتأييد، ولم يقُل قائل منهم: ما لنا ولكشمير وبيننا وبين الهند آلاف الكيلومترات؟ ما لنا ولأوزبكستان وهي في شمال الأرض ونحن في جنوبها؟ إن رُوح القرآن إذا نُفخَت في الأُمَّة أثمر فيها كلّ تلك الوظائف التي سبق الحديث عنها، وهي وظيفة الحياة، ووظيفة النور، ووظيفة الهداية، ووظيفة الخروج من الظلمات إلى النور، ووظيفة الشفاء، ووظيفة الرحمة... لذلك وجب أن نعمل على إزالة الحواجز بيننا وبين القرآن، وأن نجتهد في فهمه وتفْهيمه، وأن نجتهد قدرَ طاقتنا في مُصاحبة القرآن، هذه المصاحبة التي لا أجرؤ أن أسميها تفسيرًا، وإنما هي عِشْرة للقرآن وصُحْبة له.■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدرسات العلمية (مبدع) / المغرب.

hiramagazine.com

أ.د. طارق الحبيب*

تاريخ الطب النفسي
في بلاد المسلمين

لقد ظل علم النفس لفترة طويلة مجالاً لاجتهاد الفلاسفة والحكماء ورجال الكنيسة، ثم أصبح فرعًا من فروع علم الفلسفة، ولم يستقلّ عنه إلا بعد أن أصبح له موضوعه ومنهجه الخاص به، وقد أسهم الإسلام بنظامه المتكامل الشامل المنظِّم للحياة النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، في تقويم نظرة الناس إلى النفس البشرية، وأشار إلى شيء من أسرارها وخباياها.

ولقد احتوى القرآن الكريم على وصف موجَز لطبائع النفوس ووسائل علاجها، وكشف للإنسان عن بعض أسرار نفسه وأسرار الكون من حوله، ودعاه إلى دراسة هذه وتلك، ليعرف ويتعلَّم، ومِن ثَمَّ يتجه الاتجاه الصحيح، كما أضافت السُّنَّة النَّبويَّة كثيرًا، وفصَّلت ما ذكره القرآن مُجمَلاً في هذا المجال.

لقد أسهم العلماء المسلمون السابقون إسهامات كثيرة هامَّة في الدراسات النفسانية، لكنها لم تحظَ من قبلُ باهتمام الباحثين ومؤرِّخي الدراسات النفسانية، فهم يغفلون عن ذكر إسهامات العلماء المسلمين في الدراسات النفسية، رغم أنه قد تُرجم عديد منها إلى اللغة اللاتينية، وأثَّرَت تأثيرًا كبيرًا في آراء المفكِّرين الأوروبيين أثناء العصور الوسطى حتى بداية عصر النهضة الأوروبية الحديثة.

يقول جورج مورا واصفًا مرحلة ازدهار الطب النفسي: "لقد كان موقف العرب أكثر إنسانية نحو المرضى العقليين، مِمَّا أحدث شيئًا من التأثير على نظرة دول أوروبا الغربية تجاه المرضى العقليين، وفي الواقع فإن في المعلومات الموثّقة حول موقف العرب تجاه المرضى العقليين قلة نسبية، لكن على الرغم من ذلك يُعرف كثير من القوى الدينية والأخلاقية والعلمية التي يُفترض أن هذه الاتجاهات قد نشأت عنها، إضافة إلى ذلك فلقد أُسِّسَ عديد من المستشفيات العقلية في بغداد في القرن الثامن الميلادي، وكذلك في دمشق في القرن التاسع الميلادي، وفي القاهرة في القرن الثالث عشر الميلادي، ولقد وصف الرحالة العائدون إلى أوروبا من بلاد العرب في القرن الثاني عشر الميلادي ذلك العلاج المستنير الذي يتلقاه المرضى النفسانيون في تلك المراكز العلاجية، ووصفوا جوَّ الاسترخاء في تلك المراكز العلاجية المحاطة بالنوافير الساحرة والحدائق الغَنَّاء، ووصف كذلك الطرق العلاجية التي تشمل وجبات خاصة وحمامات وأدوية وعطورًا... إلخ".

ثم يُضِيف: "كانت هناك عيادة خارجية ومدرسة طبية مُلحَقة بكل مستشفى، وقد كانت الإمكانات العلاجية مُتاحة للمرضى الأغنياء والفقراء على حد سواء، ويبدو أن معظمهم كان يعاني ذهان الهَوَس والاكتئاب".

ويقول د. سليم عمار: "جاء الإسلام في بقعة تُعتبر مفترَقًا للحضارات القديمة، فأحيا التُّراث العلمي والفلسفي اليوناني والبيزنطي والفارسي والساساني والسرياني... واستطاع بفضل قيمه الأخلاقية والروحية السامية، أن يحوِّل قومًا من البدو الرُّحَّل يعبدون الأصنام، إلى قوم يدْعُون إلى طهارة النفس وسلامة الحياة. وفي هذا الإطار أخذ الطبُّ الرُّوحاني انطلاقة عملاقة خاصة، وأصبح الأطبَّاء العرب شديدي التعلُّق بالممارسة والتجربة، مِمَّا جعلهم ماهرين في المعاينات والنظريات الشاملة، ومنها "النظريات النفسية الجسمية" (Psychosomatic). ولقد كان القرآن الكريم هو الحافز لهذه الحركة الانبعاثية الحضارية، إذ أحدث تغيُّرًا جذريًّا في كل ميادين الحياة الاجتماعية، كما حثَّ كثير من

لقد كان لابن سينا قَصَب السَّبْق في اكتشاف عديد من النظريات التي لم يدركها العلماء إلا في العصر الحديث، فقد فسَّر ابن سينا حدوث النسيان بتداخل المعلومات، وهذا التفسير لم يصل إليه العلماء إلا في أوائل القرن العشرين.

حراء

آياته البيِّنات على الإحسان للمرضى والسفهاء، وبيَّن كيفية التصرُّف بأموالهم، وأوصى بإسعافهم والأخذ بأيديهم. وتحت ظلال العقيدة الإسلامية التي حرَّرَت الفكر استطاع الحكماء والمفكِّرون والأطباء العرب أن يطوِّروا علوم الإغريق وفلسفتهم، وأن يضيفوا إليها كثيرًا من الابتكارات، وأن يُدخلوا عليها صبغتهم الأخلاقية والتطبيقية والاجتماعية والدينية الخاصة".

وقد تمثلت معالم تلك الفترة بالمستشفيات العقلية، والنظريات والمصنَّفات.

١- المستشفيات العقلية

يُروَى أنه في نحو عام ٩٣ للهجرة، أسَّس الخليفة الأُمَوِيُّ الوليد بن عبد الملك بدمشق أول بيمارستان للمرضى العقليين، وكانت تخصَّص لهم جرايات تُنفَق عليهم للعيش داخل المأوى وخارجه.

وفي سنة ١٥١ للهجرة أسَّس العباسيون في بغداد أول قسم متخصِّص للأمراض العقلية، ثم نُسِجَت على منواله أقسام أخرى في جميع العواصم الإسلامية في المشرق والمغرب، كان أشهرها مستشفى "قلاوون" بمصر.

ولقد كانت القيروان في المغرب العربي في أواخر القرن التاسع الميلادي، عاصمة العلم والإشعاع الحضاري زمن الأغلبية الذين شيَّدوا البيمارستانات، ثم شيَّدوا أمثالها في سوسة وصفاقس وتونس، وكانت الصدقات تُنفَق على المرضى، وتقدِّم لهم في المواسم أطيب المآكل والحلويات.

وفي القرن الرابع عشر الميلادي كان مستشفى قلاوون في القاهرة مثالاً مدهشًا للرعاية النفسية، فقد كان يحوي أربعة أقسام منفصلة للجراحة، وطب الأعيُن، والأمراض الباطنية، والأمراض العقلية.

ولقد كانت الهِبات السَّخيَّة التي يدفعها الأغنياء

hiramagazine.com

في القاهرة تُتيح للمستشفى أن يقدِّم مستوًى عاليًا من الرعاية الطبية ومتابعة المريض في فترة نقاهته حتى يعود إلى حياته الطبيعية.

وفي تلك المستشفيات ملاحظتان تثيران الاهتمام:

• معالجة المرضى العقليين في مستشفى عامّ، سبق المسلمون به الاتجاه الحديث بما يقرب من ستة قرون.

• اشتراك المجتمع في رعاية المرضى.

وقد كان يخصَّص لكل مريض مرافِقان وعدد من الأطباء اختيروا بعناية من مختلف دول الشرق. وكان يُعزَل المرضى الذين يعانون صعوبةٍ في النَّوم في غرف خاصة، ويُجلَب لهم بعض القُصَّاص المهرة فيسردون عليهم الحكايات مِمَّا يساعدهم على الاستغراق في النَّوم بهدوء. كما كان يُصرَف لكل مريض خمس قطع ذهبية عند خروجه من المستشفى.

وفي عهد الدولة السلجوقية ومن بعدها الدولة العثمانية، بُنِيَ عديد من المجتمعات العلاجية حول المساجد، وكانت تُسَمَّى "التكايا"، وقد استمرَّت لعدة قرون، وهي تماثل إلى حدٍّ كبير المراكز الصِّحِّية العقلية الاجتماعية التي أُنشُئَت حديثًا في أمريكا. كما بُنِيَ عديد من المستشفيات في مختلف أنحاء الدولة العثمانية، وكان مستشفى السلطان سليمان القانوني أبدع مستشفى نفسي في العالم في ذلك الحين.

٢- النظريات والمصنَّفات

لقد سبق بعضُ العلماء المسلمين السابقين، مثل الكِنْدي وأبي بكر الرازي ومسكويه وابن حزم والغزالي وفخر الدين الرازي وابن تيمية وابن قيِّم الجَوزِيَّة، سبقوا المعالجين النفسانيين المُحدَثين من أتباع مدرسة العلاج المعرفي السلوكي، في تركيز الاهتمام في العلاج النفساني على تغيير أفكار الفرد ومعتقَداته السلبية أو الخاطئة، على اعتبار أن أفكار الفرد ومعتقداته هي التي تؤثِّر في سلوكه.

لذلك فإن هؤلاء العلماء المسلمين السابقين، هم في الحقيقة رُوَّاد العلاج المعرفي السلوكي الحديث.

وعُنِيَ ابن حزم والغزالي وابن تيمية وابن القيم في علاج السلوك المذموم أو الخلُق السيئ بضده، وهو أسلوب اتبعه المعالجون النفسانيون السلوكيون المُحدَثون في علاج بعض الاضطرابات السلوكية، مثل الخوف والقلق.

ولقد كان لابن سينا قَصَب السَّبْق في اكتشاف عديد من النظريات التي لم يدركها العلماء إلا في العصر الحديث، فقد فسَّر ابن سينا حدوث النسيان بتداخل المعلومات، وهذا التفسير لم يصل إليه العلماء إلا في أوائل القرن العشرين بعد تلك الدراسة التي أجراها جينكنز عام ١٩٢٤م، والتي أوضحت أن النسيان لا يحدث بسبب مرور الزمن دون استخدام المعلومات، وإنما بسبب انشغال الإنسان وازدياد نشاطه، مِمَّا يؤدِّي إلى التداخل والتعارُض بين معلوماته الجديدة والسابقة.

وقد سبق ابنُ سينا والفارابي العلماءَ المُحدَثين في ذكر أهمّ أسباب حدوث الأحلام، فذكرَا أن الأحلام تحدث بسبب تأثير بعض المؤثرات الحِسِّيَّة التي تصدر من خارج البدن أو من داخله، كما أشارا إلى المعاني الرمزية للأحلام وكذلك إلى دور الأحلام في إشباع الدوافع والرغبات.

ولعل من يدقق النظر يدرك أن القرآن الكريم في تحريمه الخمرَقد سبق الجميع في تقرير مبدأ التدرُّج في التعلُّم.

ولقد قدم أبو حامد الغزالي (رحمه الله) في كتابه "إحياء علوم الدين" بشكل خاصّ، مباحث قيِّمة في دراسة السلوك والدوافع والانفعالات والعواطف ودورها في التربية، كما اهتمَّ بإعلاء الدوافع ومجاهدة النفس عن طريق تكوين العادات الصالحة.

ويتميز الغزالي من كثير ممَّن سبقه من العلماء المسلمين، باجتماع قوة العقل والدين عنده في آن واحد، كما أنه لم يدرس النفس كما درسها كثيرون باعتبارها موضوعًا من موضوعات الفلسفة، وإنما درسها باعتبارها سبيلاً إلى زيادة معرفته بعظمة خالقه.

كما ازدهرت في القيروان مدرسة طبية رائدة كان من أول روادها إسحاق بن عمران، الذي ألف إحدى عشرة مخطوطة لم يصل إلينا منها سوى كتابه في الماليخونيا.

ويحتوي هذا الكتاب على فصلين، يتعلق الأول

hiramagazine.com

منهما بتعريف المرض وماهيته ومظاهره السريرية، كما يشير إلى سبب المرض الناتج عن فقدان محبوب ما أو شيء مرغوب فيه برؤية تُشبِه نظرية التحليل النفسي.

أما الفصل الثاني من ذلك الكتاب، فيعرض مختلف الوسائل العلاجية التي نعرفها اليوم، والتي يمكن ترتيبها كما يأتي:

١- العلاج بالوسائل النفسية والاعتناء بالمريض حتى تزول ظنونه، وذلك بالألفاظ الجميلة الأنيقة وبالحِيَل المنطقية والمواساة والتنزُّه في الهواء الطلق والغابات والبساتين الزاهرة.

٢- العلاج بالتغذية والحَمِيَّة، إذ يُرجَى تعديل الأسباب الرئيسية المشتركة في الصحَّة والمرض. كما صُنِّف عديد من الأطعمة من حيث الكيف والكَمّ لتكون دائمًا لذيذة صالحة.

٣- العلاج بالاستحمام والمراهم والأدهان بمثل زيت الكتان وزيت اللوز، إذ يُدلَّك بها الرأس والجسد كله.

٤- العلاج بالأدوية والعقاقير التي قد تُستخدم في العلاج الكُلِّيّ أو العلاج الجزئي لكل صنف من أصناف المرض، مثل الجوارش والسقوف والمليّنات.

ويُعدّ أبو جعفر الجزار من أعظم علماء زمانه بالمغرب العربي، ولقد كان يؤمَن بالتفاعُل القوي الذي يحصل بين الجسم والنفس، كما أن له رسالة في النفس ذكر فيها اختلاف الأوائل حولها.

وبعد اندثار عصر بيت الحكمة بـ"القيروان"، تَوَلَّى التطبيب بإفريقيا عائلة الأطباء الصقليين المشهورة، وذلك في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، خصوصًا في عهد الدولة الحفصية المزدهرة. وقد نبغ أطباء تلك المدرسة في البحث والمداواة، ومنهم أحمد الصقلي، ومحمد بن عثمان الصقلي الذي درس في كتابه المختصَر الفارسي كلاً من اليقظة والنَّوم والأحلام والفزع والكابوس والأوهام، كما عالج مرض الصرع وكذلك عوارض الهلع.

ورغم شهرة الجرَّاح الشهير أبي القاسم الزهراوي في عالَم الجراحة والصيدلة، فإنه في مقالته الثانية في كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" أشار إلى قواعد التربية وإلى مفاهيم العادة والطبيعة عند الصبيّ، وإلى صعوبة أو يُسْر التأديب تبعًا لما جبل الله ذلك الصبي عليه.

ولقد كتب الأديب والمؤرِّخ الفقيه والفيلسوف الإمام أبو محمد بن حزم الظاهري في علم النفس وماهية الأمزجة والسلوك، متأثرًا بالعوامل الطبيعية والاجتماعية، وأبرز بشكل جَلِيّ دور الدين في توجيه أفعال الفرد والتأثير على مشاعره. لقد قدَّم العلماء المسلمون نظرياتهم وآراءهم في مصنَّفات تجاوزت في عددها مئاتٍ، ولم يصل إلينا في العصر الحاضر إلا قليل منها.

ومن المعلوم أن الحضارة الإسلامية في كثير من جوانبها العلمية استفادت جدًّا من حضارة الإغريق. لكن ما ينبغي التنبُّه له، أنه لم يكُن الدين في الحضارة الإغريقية مثلما هو في الحضارة الإسلامية أساسًا للعلوم ونبراسًا ومرجعًا لها، لذلك فإنك تجد العالِم الإغريقي مُلِمًّا بعلم الدين جنبًا إلى جنب مع غيره من العلوم، في ما كان يُطلَق عليه "علم الإلهيَّات" أو "الميتافيزيقيا" (ما وراء الطبيعة). من ذلك نستنتج أنه ربما يكون إغراق بعض العلماء المسلمين ممن تنقصهم المناعة العَقَدِيَّة الكافية في دراسة حضارة الإغريق وتشرُّب نُفوسِ بعضهم نُفوسَ بعض من انحرافاتها الفلسفية، يفسِّر لنا وقوع بعضهم في شيء من الأخطاء العَقَدِيَّة.

العجيب في الأمر أنه في مقابل ذلك الازدهار منقطع النظير في العالم الإسلامي، كان بعض دول أوروبا في تلك الفترة من الزمن يحرق المرضى النفسيين، لأنهم -كما يظنون- لا يمكن علاجهم لتلبُّسِهم بالشياطين!

وقد يُفَسَّر اندثار محاولة البحث في أوروبا داخل عقل المريض ونفسه وعدم تطوُّر وتعزيز هذا المنحى، بأن الإنسان الأوروبي لم يكن مهيَّأً علميًّا بقدر كافٍ، ليستمر في محاولته فحص الاضطراب النفسي والبحث في مسبباته النفسية والعضوية، الذي ربما كان للكنيسة النصيب الأكبر في تخلفه. ■

(*) المشرف العام ومؤسس مركز مطمئنة الطبي بالرياض / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

د. أحمد مختار مكي*

أطفالنا وثقافةُ الأُمّ التربوية

يُقصَد بالثقافة التربوية للأُمّ الجوانبُ التربوية التي تكتسبها، وتشكّل تصوُّراتها ومفاهيمها لدورها التربوي تجاه الأبناء.

وتتعدد جوانب هذه الثقافة، فمنها ما يتَّصل بالصحَّة وأساليب التغذية السليمة، وما يتَّصل بالتربية الروحية والخُلُقية أو الأساليب التربوية الصحيحة لتربية الأبناء، وغير ذلك مِمَّا يتَّصل بفنون الأمومة ومهاراتها.

ثقافة التغذية والصحَّة

تُعَدُّ ثقافة الغذاء والصحَّة أحد أهَمّ جوانب الثقافة التربوية للأُمّ. ويكتسب هذا الجانبُ أهمِّيتَه، من أثره المباشر في الجانب الجسمي والصحي للأبناء، "وتمثل هذه الثقافة مكانة خاصة في جميع دول العالم الثالث التي تفتقر إلى البيئة الصِّحِّية السليمة، حيث تغلب الأُمِّيَّة والجهل على أسس الحياة الصِّحِّية والغذائية"[1].

من ثَم يصبح من الضروري رفع مستوى ثقافة الأُمّ في التغذية والصحَّة وإلمامها بعلوم التغذية "التي تهتمّ بعلاقات الغذاء بصِحَّة الإنسان أو المجتمع، وبالعمليات الحيوية التي بواسطتها يستعمل الإنسان الغذاء للمحافظة على حياته ونموّه وحيويته والفاعليَّة الكاملة لأعضاء جسمه"[2].

يجب على الأُمّ معرفة المكونات الرئيسية للغذاء، والكميات المطلوبة لإحداث النموّ الطبيعي للأبناء في مراحل العمر المختلفة، والإلمام بالقواعد العامة

للصِّحَّة والعادات الصِّحِّية التي تُسهِم في الوقاية من المرض، وكيفية التصرُّف السليم في حالة تعرُّض أحد الأبناء للمرض، "وعلى الأُمّ أن تُكسِب الأبناء الطريقة الصحيحة لتناوُل الطعام، والنظافة الشخصية والبيئية، وتكوين عادات النَّوم واليقظة"[٣]. ولا تستطيع الأُمّ أن تفعل هذا إذا لم تمتلك من الثقافة التربوية ما يؤهِّلها لهذا الدور. ومعرفة الأُمّ بالطاقة أو السعرات الحرارية اللازمة لكل فترة عمرية لها أهميتها، لأن كثيرًا من الأسر يُنفِق الكثير من دخلها على الغذاء، ومع ذلك يُصاب أفرادها بأمراض سوء التغذية، لعدم معرفة ربة المنزل بالشروط الواجب تَوافُرها في الغذاء الصحي، والتي تتمثَّل في "أن يحوي كل العناصر الغذائية الضرورية بكميات كافية، وأن يحوي كمية كافية من السوائل، وأن يكون سهل الهضم، وأن يكون خاليًا من المواد الضارة بالصحَّة، وأن يكون متنوِّعًا وفاتحًا للشهيَّة ومقبولَ الشكل"[٤]. وتنتشر أمراض سوء التغذية بخاصة بين أطفال الدول النامية، ويعرَّف سوء التغذية بأنه "الحالة الناتجة عن كلٍّ مِن الإفراط والنقص في التغذية لمدة طويلة من الزمن، والنقص في التغذية ينجم عن الحالات الناتجة عن استهلاك غذاء لا يوفي باحتياجات الجسم لمدة طويلة من الزمن، ومن أهَمّ مظاهرها الهزال والأنيميا والعمى الليلي"[٥]. وكثير من الآثار يترتَّب على سوء التغذية، الذي يُعَدُّ جهلُ المرأة بعلوم التغذية، السببَ الرئيس في انتشاره بين أفراد الأسرة والأطفال، خصوصًا أنه "من السنة الثالثة حتى السادسة، يؤثِّر سوء التغذية في نموّ الطفل بشكل واضح بحيث يبدو الطفل سليمًا، ولكن وزنه أقل من الوزن الطبيعي لمن هم في نفس سِنِّه، ويبدو جسمه غير متناسق فيكون الرأس كبيرًا بالنسبة إلى الجسم، والساقان نحيفتين، وحجم القفص الصدري صغيرًا بالنسبة إلى البطن"[٦].

يجب أن تدرك الأُمّ أيضًا، الأضرارَ التي تسبِّبها الموادُّ الحافظة والألوان على صحة الأفراد، "هناك إضافات متعمدة لأغراض التصنيع والحفظ، مثل إضافة الموادّ الحافظة كالنترات والنيتريت إلى اللحوم ومنتجاتها، والموادّ المضادة للأكسدة إلى الزيوت والدهون لإطالة

إن الثقافة الدينية والخلقية لـلأم، لها ضرورتها في تربية الأبناء دينيًّا وخلقيًّا، ومن ثم تصبح ضرورة لتثقيف المرأة تربويًّا، حتى تستطيع القيام بدورها في تربية الأبناء.

حراء

عمرها التسويقي. وعلى سبيل المثال: "إن استعمال النترات والنيتريت في اللحوم ومنتجاتها، قد يؤدِّي إلى تفاعل النيتريت مع بعض الأحماض الأمينية، ويَنتج عن ذلك مركب النيتروزامين الذي يسبِّب سرطان المعدة"[٧]. والألوان الصناعية التي تضاف إلى الغِذاء، بخاصة أغذية الأطفال، "تسبِّب حساسية أو تقلِّل قدرة الجسم على احتمال الغذاء"[٨]. وتتعدد الأخطار الناجمة عن استخدام محسِّنات الطعم واللون والموادّ الحافظة، مِمَّا يستدعي أن يكون لدى الأُمّ ثقافة بهذه الأخطار، كي تحمي أفراد أسرتها من الأمراض الناجمة عن هذه المأكولات.

رغم أهمية ثقافة الغذاء والصحَّة للأُمّ للقيام بدورها تجاه الأبناء، فإن هناك الكثير من العوامل التي تؤثر في هذا الدور مثل: المستوى التعليمي للأُمّ، ومستوى دَخْل الأسرة، والعادات المجتمعية المتعلقة بالغذاء.

الثقافة الدينية والخُلُقية

إلمام الأُمّ بالثقافة الدينية والتربية الخُلُقية له أهميته، فإن "تنمية القيم الخُلُقية والتوجهات الدينية بشكل معتدل بعيدًا عن التعصُّب، من أهم الجوانب التي يجب اتباعها في تربية الأبناء"[٩]. يرى البعض الدينَ "ظاهرة اجتماعية تدخل في علاقة تفاعلية مع الوحدات الاجتماعية الأخرى المكونة للمجتمع"[١٠]، وهذه الرؤية تؤكِّد الوجه الاجتماعي للدين، وهي رؤية صحيحة، لأن أيّ دين يدخل في تفاعلات مع عادات وتقاليد المجتمع، بخاصة في المناسبات الاجتماعية كالزفاف والوفاة وغيرها، ويدخل في تفاعلات مع قيم المجتمع ويؤثر فيها. لهذا فإن الدين يمثل "حاجة ضرورية للإنسان يتحقَّق بقضائها معرفته حقيقة مكانته في هذه الحياة، ورسالته ودوره الذي يجب أن يؤدِّيه مع أي إنسان

hiramagazine.com

آخر"[١١]، كما أن للدين وظائف عديدة في المجتمع، "فالدين منذ القدم شامل للثقافة، وهو ذو وظيفة جوهرية للمجتمع الإنساني، وإن كان الأفراد يختلفون في ما بينهم في درجة تعلقهم بالدين"[١٢].

من هنا تأتي أهمية الدين، ومن ثم التربية الدينية والثقافة الدينية لدى الأُمّ، لتربّي الأبناء تربية دينية صحيحة، ولا تتوقف عند تعليمهم تأدية العبادات فحسب.

التربية الدينية للأطفال من أهمّ عوامل نجاحهم في حياتهم المستقبلية، وهي التي سوف تميزهم من غيرهم، بخاصة في وقت "بدأت فيه قوة الدين تضعف تدريجيًا في أوروبا نتيجة ازدهار المادّية ونمائها، الأمر الذي أطلق العنان للأنانية والحقد واستغلال النفوذ والكراهية"[١٣].

"وإن ما أصاب المجتمعات الغربية -من انتشار المخدّرات والرذائل، وضَعْف الروابط الأسرية وشعور الفرد في تلك المجتمعات بالغربة والضياع، مِمَّا أدَّى إلى ارتفاع نسبة الانتحار- هو نتيجة لغياب الجانب الرُّوحِي والخُلُقي في التربية بهذه المجتمعات. وإن مصيرًا مثل هذا متوقَّع للمجتمعات الإسلامية إذا ما جرفها تيار استيراد الأفكار والنظريات الاجتماعية والتربوية، ومفاهيم الغرب ومضامينه تحت اسم العصرية والحداثة"[١٤]. إن للتربية الخُلُقية أهميتها لأنها لا تنفصل عن الدين، وهي تميّز المجتمع، حتى شبَّهَها دوركايم بالزِّيّ المميّز: "إن الأنظمة الخُلُقية للمجتمعات، من أكثر الأنظمة التي تميز المجتمع من غيره، لأنها بالنسبة إلى المجتمع تشبه السُّتْرة المميّزة"[١٥]. إلا أن البعض يرى أن "التربية الخُلُقية مُهمَلة في البيت، ومُهمَلة في المدرسة، ومُهمَلة في المجتمع، في الوقت الذي يرى فيه المُرَبُّون والمُصلحون أن سعادة الأمم لا تتوقف على كثرة دَخْلها، ولا على قوة حصونها أو جمال مبانيها، ولكنها تتوقف على عدد المهذّبين من أبنائها"[١٦].

قد حدَثت تغييرات في المجتمع نتيجة عديد من العوامل التي أثرت في بنية المجتمع وقيمه الخُلُقية، ومن بين الظواهر المنافية للقيم الخُلُقية، ظاهرة الغِشّ التي لفتت أنظار بعضٍ من الباحثين، وترى نادية رضوان "أن بعض الأفراد يلجؤون إلى الغِشّ وسيلةً للحصول على أشياء معيَّنة دون ما يلزم من جهد، إذ يبغون الوصول إلى ما يريدون بأسهل الطرق وأقلّها جهدًا. فالغش هو محاولة الحصول على شيء ما بوسائل غير مشروعة، وتبدأ العلامات الأُولَى لهذه الظاهرة السلبية التي يلجأ إليها الأطفال أحيانًا من تحايل على الآباء، كأن يدَّعِي الطفل أنه قد أنهى واجباته المدرسية حتى يُسمَح له باللعب أو مشاهدة التلفاز، أو أن يلجأ إلى الغِشّ في الامتحانات مع علم الأسرة، التي قد تستخفّ بذلك الاتجاه بزَعْم أن بعض التلاميذ الأقلّ مستوى من طفلهم يحصلون على درجات أكثر عن طريق الغش"[١٧]، وهذا الأسلوب من الأسرة يُعَدُّ هدْمًا للقيم الخُلُقية.

بعض التصرُّفات الخاطئة من الأُمّ يؤثُّر في أخلاق الأبناء، ومنها:

أ- من التصرُّفات غير الخُلُقية التي تصدر من الأُمّ إنْ رنّ الهاتف وهي مُجهَدة أو لا تريد محادثة المتصلة بها، أن تطلب من أبنائها أن يقولوا إنها نائمة أو غير موجودة، وبهذا تعلِّم الأبناء الكذب، "والكذب من أقبح الظواهر في نظر الإسلام، وعلى المربّين أن ينفِّروا أبناءهم منه وينهوهم عنه، ويكشفوا لهم مضارَّه وأخطاره"[١٨].

وعلى الأُمّ أن تعرف أن عدم تطابُق العمل مع السلوك يؤدِّي إلى فشل محاولاتها في التربية الخُلُقية، فالطفل يحتاج إلى قدوة يتأسى بها في القيم الخُلُقية، وليس في حاجة إلى الوعظ والنصح والإرشاد.

ب- لجوء الأُمّ إلى الثواب والعقاب لإحداث تربية خلقية؛ "إن الثواب والعقاب لا يكفيان وحدهما، فهناك قدر كبير لا يُكتسب عن هذا الطريق، بل عن طريق الملاحظة لسلوك الآخرين"[١٩]. فالقدوة الحسنة هي طريق إحداث تربية خُلُقية.

ج- تسعى الأُمّ إلى إتاحة الفرصة لأبنائها -بخاصة البنات- للحديث عن أسرار الزملاء والأصدقاء، اعتقادًا منها أنها وسيلة لتوجيههم للابتعاد عن السيئ من هؤلاء الزملاء والأصدقاء، ولكن الحقيقة أنها تدفع بهم إلى عادة سيئة هي إفشاء السرّ؛ "وهو منهيّ عنه، لما فيه من

hiramagazine.com

الإيذاء والتهاوُن في حق المعارف والأصدقاء؛ قال النَّبيّ ﷺ: "إذا حدّث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة" (رواه الترمذي)، وقال: "الحديث بينكم أمانة".

د- من الأساليب الخاطئة في التربية الخُلُقية التي تتبعها الأمهات مع الأطفال، التهديد والترهيب بالله، كأن تقول لطفلها: إن كذبتَ، يدخلك ربنا النار.. وفي هذه الفترة العمرية، يجب الابتعاد عن هذا الأسلوب لأن نتائجه عكسية، إذ سيرى الطفل في الله صورة تجعله لا يقترب من الله، بل يبتعد عنه.. والواجب أن نربط الطفل بخالقه عن طريق الوعد لا الوعيد.

يتضح مِمَّا سبق أن الثقافة الدينية والخُلُقية للأُمّ، لها ضرورتها في تربية الأبناء دينيًّا وخُلُقِيًّا، ومن ثَمَّ تصبح ضرورة لتثقيف المرأة تربويًّا، حتى تستطيع أداء دورها في تربية الأبناء.

مِمَّا سبق يتضح أن الثقافة التربوية للأُمّ لها ضرورتها من أجل تربية سوية للأبناء، تنعكس آثارها في المجتمع وتُسهُم في تقدمه. ■

(*) أستاذ مساعد أصول تربية / مصر.

الهوامش

(١) فاطمة علي جمعة، ٢٠٠٤، ص:١٩.

(٢) مجدي محب الدين، ١٩٩٩، ص:١١.

(٣) فاطمة علي جمعة، ٢٠٠٤، ص:٢١-٢٢.

(٤) منظمة الصحَّة العالمية، ٢٠٠٥، ص:٨١.

(٥) مجدي محب الدين، ١٩٩٩، ص:١١.

(٦) منظمة الصحَّة العالمية، ٢٠٠٥، ص:٢٢٤.

(٧) محمود محمد مصطفى، وشاكر شحاتة رزق، ٢٠٠٧، ص:١٥-١٦.

(٨) محمود محمد مصطفى، وشاكر شحاتة رزق، ٢٠٠٧، ص:٢٤.

(٩) عبد اللطيف محمد خليفة، ١٩٩٢، ص:١٦٨.

(١٠) محمد أحمد بيومي، ١٩٩٧، ص:٨٨.

(١١) عبد الله الخريجي، د.ت، ص ٣٧.

(١٢) Richard T. Schaefer andRobert P.Lamm, 1995, p:396

(١٣) مولاي محمد علي، د.ت، ص:١٢.

(١٤) أحمد مختار مكي، ٢٠٠٦، ص:٢٩.

(١٥) Cuff. C & Others, 1994, p:33

(١٦) محمد عطية الأبراشي، ٢٠٠٣، ص:٦٩-٧٠.

(١٧) نادية رضوان، ١٩٩٧، ص:٧٣.

(١٨) مواهب عياد، وليلي الحضري، ١٩٩٥، ص:٦٨.

(١٩) محمد عماد الدين إسماعيل، ١٩٨٦، ص:٢٥٤.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

يا حمّال!

على ظهرك الـمَحنيّ آدتك أحمالُ،
عرَقًا جبينُكَ يتصبَّب،
ولِحيتَكَ البَيضاءَ يُخَضِّب...
مترنحًا تمشي، وبخطوك تتعثّر...
آهٍ يا جدي، هَلاَّ استرحتَ،
والصُّعدَاءَ تنفّستَ،
ومن العمر عتيًّا قد بلغت..؟!
فأجابني: "لا حيلة لي يا ولدي،
وحدي مشيت،
ودليلا يرشدني ما وجدت،
فشاب شعري، وانحنى ظهري،
فلا ملجأ إليه ألتجئ،
ولا عروة وثقى عليها أعتمد...

* * *

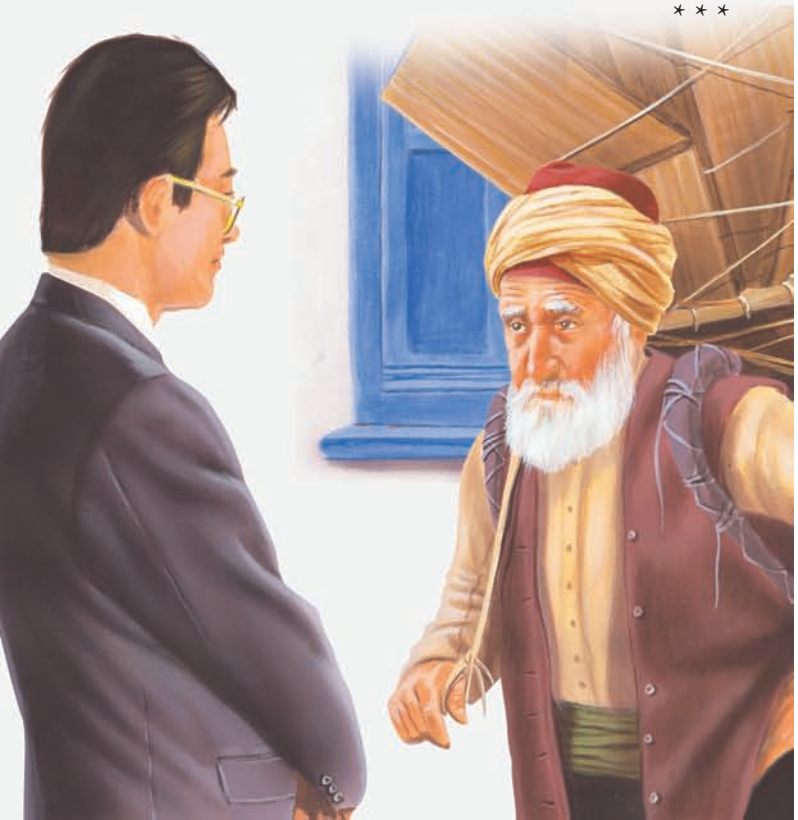

د. محمد باباعمي*

من سياسة إطفاء الحرائق
إلى التخطيط الإستراتيجي المؤيَّد

سؤال من أخي الباحث عن الحقيقة، ممَّا جاء فيه:

"قد وصلنا في قراءة "النور الخالد" إلى فصل "الأمانة" من صفات الرسول ﷺ، وكان رائعًا في استجلاء جوانب الأمانة والحث على تمثُّلها في حياة المؤمنين المعاصرين، وشباب "الخدمة"، وبخاصة في الفقرة الأخيرة منه. وإنَّا لَنشعُر دومًا بأهمية هذه التوجيهات، ونتصوَّر أنها لو كانت بحقٍّ ديدن المسلم لاستمرَّ نور الرسول ﷺ نهرًا من الخيرات لا ينقطع، ولَتعلَّم العالمون العاملون من المسلمين كلَّ ما يزيح هذه الأباطيل والأضاليل التي نتخبط فيها".

ثم قال، وهو من أرباب الهَمّ وأصحاب الهمَّة، لا خفر الله له ذمَّة:

"لقد أحسستُ أنَّ فقه الأمانة -كما قدَّمه الأستاذ فتح الله- كافٍ لأن يُسهم بقوة في حلِّ هذه الإشكالات، ويحمل المسلمين إلى تمثُّل دينهم، ويرقى إلى المطلوب منهم أن ينجزوه للعالَم ولأنفسهم، نسأل الله أن يلهمنا ذلك".

"أقول هذا أخي محمد ونحن نعيش -والأسى يملأ الجوانحَ- خلافات وشقاقات وقلاقل تُدمِي القلوب وتقضُّ المضاجع، ذلك مع عجزنا عن احتواء أزمة التعايش في أوطاننا... فلا نزال في حيرة من أمرنا: كيف نُقنِع الأطراف بالتفطُّن إلى المكايد، ليتجنبوا الوقوع في الفخاخ، ويقفوا في وجه المتربصين؟! فالكل يرى الحق إلى جنبه مقصورًا".

"أخي محمد، معذرة وقد شغلتُك بهذا، ولكنه واقع أُمَّتنا، وما لنا بدٌّ من السعي في إصلاحه قدر مستطاعنا، ولن نصل إلى ذلك إلا بالنُّصح والتناصُح، فاشفوا الغليل برأي منكم حصيف، يدَّخره الله لكم سببًا للفلاح، ومَن أحسَنُ عملاً ممن

سعى في رأب الصدع وجمع الكلمة، فجزاكم الله خيرًا، وجعلكم مفاتيح لكلِّ خير... والسلام".

الجواب من عَيِيٍّ قاصرٍ مِثلي... وربي الرحمنُ هو الأعلم والأحكم:

أستاذي وحبيبي، سلام وتحية تقصُر عن حملها الرواسي... مِن أخ لك لم تلده أمُّك، وصديقٍ لك معترف بقدرك مقصِّر في حقِّك... أخيك الأصغر محمد.

بعد جِلٍّ وترحال مسترسل من تونس إلى سلطنة عمان، ثم إلى المغرب الجار ذي القربى، متجوِّلين بين مدنه العديدة الجميلة، ها قد حططتُ الرحال، وتنفسَّت الصعداء، ثم جلستُ لأُوفِيَ بوعدي لك، أن أكتب جوابًا لكتابك السالف، مستعينًا بالله سائلاً لطفه وسنده ورحمته.

أخي اللبيب، سألتَ عن "أمر عظيم" في "أمر عظيم" هو حال أمتنا هنالك في رَبْع من ربوع بلاد الإسلام الفسيحة، وهو ذات الحال في أكثر من قُطْر وبلد من أقطار المسلمين وبلادهم، الفُرقة، وضيق الأفق، والفتن الرخيصة، والأيادي الخفية، والأحلام الخفيفة.

ولِي في ذلك -والله أعلم- مِمَّا أنا فيه، ومن بعدِ تشرُّب فكر الأستاذ فتح الله، ومعايشة أنفاس "الخدمة" مشرقًا ومغربًا، لي في ذلك رأيٌ، لعلَّ فيه بعضَ الصواب، وإلا فارْمِ به أرضًا ولا تلتفت إليه أبدًا، وهو أنَّ إدارة الأمم، والمجتمعات، والجماعات، والمؤسَّسات، والهيئات... لا تكون إلا في مستوى المسؤولية، والخطورة والأهمية التي نعطيها لها، فإنْ نحن أمددناها بعُشْر وقتنا وطاقتنا لم تُعطِنا إلا العُشْر، وإن نحن سلَّمناها النصف قابلَتنا بالنصف، وإن جُدنا بالكل فإننا -بحول الله- نجدها تسخو علينا بكل ثمارها ولا غرو.

الصراحة والصواب والنصح تحتِّم علينا مجتمعةً، أن نعترف أننا نذير اليوم وضعية معقَّدة، ومصيرًا مجهولاً، وسفينة موَّارة تَرنَّحُ بها الأمواج يَمنة ويَسرة، ومجتمَعاتٍ تفور وتغلي، وهيئات شاخت واهترأت، نَقودها -أو كأننا نقودها في ما يبدو- بكثير من الهمّ، وببعض الجهد، وبقليل من التخطيط والتنظيم، والتوافق والعمل الجماعي، والبحث المنهجي.

لكأنَّ المهمَّ هو أن نكون، لا أن نكون كما يجب أن نكون، هذه هي عقدة المسألة.

إن نصف الرِّجْل هنا ونصفها هنالك، ونصف اليد هنا ونصفها الآخر هنالك، ونصف العقل لهذا ونصفه الثاني لذلك، وبعض القلب لهؤلاء والبعض المتبقي لأولئك... لا يصنع التغيير ولا يُرتجى من شطره بزوغ الفجر الجديد.

أخي وحبيبي، لو سألتُ عنك أين أجدك؟ فإني -ولا ريب، وهذا من أمارات كرمك وسخائك وحبك للخير وابتغائك الرضا والقبول- إذا سألتُ عنك، فسأجدك في كل مكان، لكن للأسف لن أجدك في أيِّ مكان، فأنت في الجامعة وأنت في الجمعية، وأنت في المدرسة أو أنت في الشركة، وأنت في الحيّ وفي الحزب، وأنت متجوِّل عبر المدن والبلدان، وأنت حامل هَمّ القريب والبعيد... وهذا كله -وايْم الله- صبر واجتهاد وأجر ومثوبة.

لكن أين الخلل؟

الخلل هو أنك لم تُعطِ أيَّ مَهَمَّة حَقَّها ومستحَقَّها، ولم تَهَبْ لأيَّ رسالة جميعَ مَلَكاتك ومواهبك وطاقاتك... فلا العلم والتحقيق العلمي وجد منك "الباحث المرتقَب"، ولا المجتمع والمؤسَّسات وجدت منك "المتفرِّغ الدائم"، أي إن منطق "إطفاء الحرائق" بات هو سيد الموقف، وهو صاحب القول الفصل فيَّ، وفيك، وفيه، وفينا جميعًا.

أمَّا ما وصفته بالمشكلات والقلاقل، في حيِّزك وفي كثير من حوز بلاد المسلمين اليوم، فهو جرح غائر عميق لا شفاء منه إلا على أيدٍ متوضئة خبيرة تصل الليل بالنهار جلوسًا وتخطيطًا وتنفيذًا، لتأتي بما يلزم في إجراء ما يشبه "العملية الجراحية المخِّية أو القلبية".

فهل يا ترى يتسنى للطبيب العامّ أن يقود هذه المهمَّة الشاقَّة الخطيرة؟!

ألا تجد أخي أننا اضطُررنا رغبًا ورهبًا، وبفعل جريان الأحداث فينا، على وقع "مُكرهٌ أخاك لا بَطَل"، اضطُررنا إلى أن نتحول إلى "أطباء"، لكن في "الطب العامّ" لا المتخصِّص، وعجزنا عن تحقيق الخرِّيتية الضرورية للنهوض بالأمم والمجتمعات.

hiramagazine.com

فأين الحلّ إذن؟

الحَلُّ هو أن نَصدُق ربَّنا ونَصدُق دينَنا ونَصدُق أمَّتنا ونَصدُق أنفسَنا... ثم نغلق على أنفسنا أيامًا طوالاً لنصوغ "مخطَّطًا استراتيجيًّا شاملاً" قابلاً للتنفيذ مع نيَّة التنفيذ، مخطَّطًا يجمع إلى الغاية الوسيلةَ، وإلى الأهداف الواقعيةَ، وإلى التوكُّل والاستسلام المطلق لله الامتثالَ لأمره والعملَ بمقتضى سننه وشِرعته.

لعل المناصب والوظائف تتبدَّل جرَّاء هذا الاختيار الصعب، بل لعل كثيرًا من المكتسبات المادية والدنيوية والمعنوية يُضَحَّى بها، ولعل ما يشبه التوجيه النظامي يكون هو المحدِّد، ولعلّ القَدَر يجمع بين ثُلَّة مِنَّا في "مركز -أو مراكز- للتفكير الدائم المتواصل".

قد نجوع في هذا السبيل، ولكنا لا نغادر، وقد نغرق فيه ولكنا لا نساوم.

أخي، ما كنت أدعو إليه لسنوات مضت، بصوتٍ مبحوح خافتٍ قاصر لقصوري، ما كنت أنادي إليه نظريًّا بلا نموذج سابق مع عجز مني حقيق، الذي كنت أبحث عنه هائمًا عاشقًا... ها اليوم أجده عمليًّا ماثلاً في الواقع، أجده في نهضة تجديدية جادة ضمن دوحة "الخدمة" وجنَّتها، نهضةٍ لا تعرف العفوية ولا تؤمن بالأشباه والأمثال والنظائر، هي إلى السماء وإلى ربِّ الأسباب متوجهة قاصدة حثيثة، وهي على الأرض وضمن دائرة منظومة الأسباب عاملة ناصبة كادحة، معتقدة أنَّ ذلك من تمام التوكُّل على الله، سِمَتُها "الرَّبَّانيةُ" مع "الرُّبَّانية" مقترنتيْن بـ"الفتح" ثم "الضَّمّ".

فهل نحن كذلك؟

لا شك أننا مؤهَّلون لذلك في دائرتنا القريبة والبعيدة، ولكن وا حسرتاه، نحن كذلك بالقوة لا بالفعل، بالتمنّي والرجاء لا بالعزم والحزم... لذا، فلا أملَ يُرتجى من نقص وتقصير مع القدرة على الكمال والتمام. هذا -ولا ريب- ما تجده في قلبك أخي وحبيبي، وهو ما أجده مَطلعَ كل شمس ومغرب كل شمس.

فلنكُن إذن صادقين، "والله يحبُّ الصادقين"، ثم لنكُن مع الصادقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، وذلك هو الفَلاح المبين: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

أخي وحبيبي، يحلو لي أن أُهدِي إليك وإلى كل صادق أمين من أمثالك، النَّصَّ الذي أشدت به في رسالتك، وهو جوهرةٌ من جواهر "النور الخالد"، ففيه تحت عنوان "يا براعم الأمل" نقرأ:

"أجل، ستقومون أنتم بإهداء حقائق الدين وإقامتها في الدنيا مرة أخرى، فأنتم باقة ضوء من منبع نور عظيم أضاء أطراف العالَم الغارق في الظلام، وأنشأ شجرة إيمان وارفة الظلال كشجرة طوبى ظلَّلت بأوراقها وأزهارها كلَّ الأرجاء.

كانت كلُّ كلمة لأُمَّتنا في المباحثات الدولية في تلك العهود الزاهرة بمثابة أمر، وستقومون أنتم -بإذن الله- باستعادة تلك العهود الزاهرة، والتخلُّص سريعًا من هذا العهد المظلم الذي نعيشه. فهذا هو ما يأمله الجميع منكم، يأمله من يعيش فوق التُّراب ومن هو مدفون تحته. بل هذا ما يأمله منكم رسول الله محمد ﷺ، وهو يتجول بروحانيته بينكم، ويربت على أكتافكم ويبتسم لكم وإن كنتم لا ترونه أو تحسُّون به.

أنتم تستطيعون نشر الأمن والطمأنينة في ما حولكم إن بقيتم أمناء ولم تنحرفوا عن الاستقامة. أجل، إن استطعتم تحقيق هذا، انفتح لكم قلب الإنسانية جمعاء على مصراعيه، وستتربعون في هذا القلب كما تَرَبَّع أجدادكم من قبل. ولكن لا تنسوا أبدًا أنَّ شرط الوصول إلى هذه النتيجة وإلى هذه الذروة، مرتبط بكونكم أمناء للأمانة الملقاة على عاتقكم.

فإن كنا نريد أن نكون أمَّة لها وزنها وكلمتها في الشؤون الدولية المهمة، ونلعب دورًا بارزًا في تأسيس التوازُن الدولي -حيث إننا مضطرون أن نكون كذلك- فيجب أن نكون ممثلين للحق وللعدالة وللاستقامة وللأمن".

أخي وقُرَّة عيني، تحياتي إليك وإلى المرابطين من أحِبَّتي وأساتذتي ورفقائي، من يعرفني ومن لا يعرفني مِمَّن معك، والسلام عليك وعليهم جميعًا. ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

hiramagazine.com

د. سلمان العودة*

تغيير نبوي

أعمق تغيير في التاريخ كان سلميًّا وهادئًا، ولكنه حاسم وعميق. غيَّر النَّبيّ ﷺ المعتقدات والسلوك والعادات الاجتماعية بالإقناع والرفق والرحمة واللين، واستخدم القوة في أضيق نطاق.

ثلاث عشرة سنة في مكة كانت مرحلة استضعاف.

معركة بدر كانت من غير ترتيب، معركة أُحد كانت دفاعًا، الأحزاب كانت دفاعًا، صلح الحديبية كان ميثاقًا ظنَّه بعض المسلمين دَنِيَّة في دينهم، فتحُ مكَّة لم يُرَق فيه إلا قليل من الدماء وأُعلِنَ فيه: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" (رواه البخاري).

أنصف المظلومين، وحرَّر العبيد، ورفع قيمة الإنسان، وكرَّم المرأة... أزال أُبَّهة المتنفِّذين والمستبدِّين بأقلِّ الخسائر.

تعجب كيف قضى النَّبيّ ﷺ على عادات الثأر في الجاهليَّة العربية، وكيف بنى العقلية الواعية المنعتقة من

التقليد والتبعية، ومن الكهانة والعرافة والخَطّ والرمل، وكيف بنى الحواجز النفسية في عقول أتباعه ضدّ كل ما هو "جاهليَّة": "تبرج الجاهليَّة"، "حميَّة الجاهليَّة"، "حكم الجاهليَّة"، "فخر الجاهليَّة"، "عصبية الجاهليَّة"... حتى قال ﷺ لأبي ذَرّ ﷺ: "إنك امرؤ فيك جاهليَّة" (رواه مسلم).

لم يهادن الوثنية طرفة عين مهما كانت التضحيات، وسعى لهدمها في عقول الناس ومشاعرهم، وبناء التوحيد، ولكنه دخل مكة في عمرة القضاء وحول الكعبة ثلاثمئة وستون صنمًا فلم يهدمها، لأن إعادة بنائها سهلة وبطريقة أفضل لدى من لا يزالون يؤمنون بها، ويملكون فعل ذلك، ولم يهدمها حتى فتح مكة ودانت له الأرض ومَن عليها، وصنع القناعة الراسخة ببطلانها لدى القاعدة العريضة من الناس حتى قال قائلهم: "لو كانت تُغنِي شيئًا ما خذلتنا".

يظهر صبره ﷺ في التعايش مع الوثنيين بمكة، واستنفاد الوسائل كافَّةً في مصابرتهم وسعة الصدر عليهم مع صدودهم وأذاهم وعدوانهم عليه وعلى أصحابه من الرجال والنساء.

ثُمَّ في المدينة حيث ساكَنَ اليهود والوثنيين من الأوس والخزرج والمنافقين وضعفاء الإيمان الذين ظلُّوا موجودين إلى آخر حياته، فقد نزلت سورة الحجرات سنة تسع، وفيها التحذير من سوء الأدب معه، ورفع الصوت، ومن التنابز بالألقاب والسخرية وسوء الظنّ، وخُتمت بقوله ﷻ: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الحجرات:١٤).

ولقد مات رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهوديّ على طعام اشتراه لأهله، لقد كان الشراء بالنسبة إليه خيرًا، والبيع بالنسبة إلى اليهودي خيرًا، وهذا أساس التعايش، أن تدرك أن مصلحتك قد تكون مصلحة الآخرين أيضًا والعكس بالعكس.

كان درسًا عمليًّا للأجيال أن تكون المدينة النَّبويَّة عاصمة الإسلام الأُولَى حافلة بهذا التنوع، ليتعلم الناس أسلوب الداعية العظيم في التعامل مع مُساكِنِيه ومُواطِنِيه من غير أهل مِلَّته.

الحكم الإسلامي عبر العصور، حفظ الطوائف والمذاهب المختلفة ضِمْنَ نسيجه الاجتماعي، ولم يفرض عليهم تغيير مذاهبهم، وإن كان يجادلهم بالتي هي أحسن.

حين يتهتك هذا النسيج بسبب صدامات تغذّيها السياسة، وتحفّز عليه الجهالة ويضرمها التعصُّب وضيق الأُفُق، تقع المصادمات بين الجيران، وينسى الناس الوصية النَّبويَّة بحسن الجوار حتى مع الخصوم، وقد حكت لنا السُّنَّة عن تعامُل النَّبيّ ﷺ مع جاره اليهودي.

عند الصدام يتراجع مستوى الوعي والعقل، ويُهرَع الناس إلى سوء الظنّ بالآخر والاستعداد لأسوأ الاحتمالات فيعودون للوعي الأوَّلِيّ البدائي.

العقلاء يدركون أن هذا الأمر طارئ وقابل للتراجع حين تضع الحروب أوزارها، ويفكّر الناس بالمصالح المشتركة والعيش والمُساكَنة.

لهذا مدح عمرو بن العاص ﷺ الرُّوم بأنهم "أسرع الناس إفاقة بعد مصيبة".

هو هنا يتحدث عن صفة في العقل الجَمعي لهم، وأنهم يتجاوزون فترات التوتر والحرب والاحتقان، إلى ميدان الحوار والبحث عن المشترَك، وهذا ما شاهدناه في أوروبا بعد الحربين العالميتين، إذ اتجهت شعوبها إلى العولمة والاتحاد في السوق الأوروبية، ثم في الاتحاد الأوروبي بمؤسَّساته الضخمة، بينما يظلّ بعض القبائل العربية -بسبب عادة الثأر- محتفظًا بعداوته القديمة، يلقنها لأجياله الشابة ويعيد إنتاج قصصه وأشعاره كأنها حدثت البارحة.

وقد يأخذ هذا الاحتقان طابعًا مذهبيًّا أو صفة حزبية، فيُقحِم الناسُ المذهبَ أو الانتماء السياسي أو الفكري في علاقاتهم، وتجد هذا لدى الإسلامي والعلماني، مِمَّا يدلّ على أن الفكر لم يفلح في تهذيب هذه النزعة، ولكنه وجَّهها ذات اليمين أو ذات الشِّمال. ■

(*) عالم ومفكر وداعية / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

أ.د. بركات محمد مراد*

المجريطي

بين الكيمياء وعلم الفلك

يُعتبر أبو القاسم المجريطي (٣٣٨هـ/٩٥٠م) من نوابغ علماء العرب والمسلمين في الأندلس، إذ كان موسوعة زمانه في جميع فروع المعرفة، يقول ديفيد يوجين سميث في كتابه "تاريخ الرياضيات": "إن أبَا القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي كان مُغرَمًا بالأعداد المتحابَّة، ومشهورًا بتفوقه على غيره من علماء العرب والمسلمين في الأندلس في علمَي الفلك والهندسة". ويضيف سيد حسين نصر في كتابه "العلوم والحضارة في الإسلام": "عُرِفَ المجريطي عند الأوربيين بأنه أوَّل من علَّق على الخريطة الفلكية لبطليموس ورسائل إخوان الصفا والجداول الفلكية لمحمد بن موسى الخوارزمي من علماء العرب والمسلمين في الأندلس. كان له شهرة عظيمة في الرياضيات والفلك، إضافة إلى ما ناله من احترام وتقدير لمجهوداته الجيدة في علم الكيمياء".

وقد عُرِفَ المجريطي بهذا الاسم لأنه وُلِدَ في مجريط (مدريد عاصمة إسبانيا اليوم)

وإليها يُنسَب. وانتقل إلى قرطبة حيث عاش وتُوُفِّيَ هناك في أوج ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في بلاد الأندلس.

ولقد اعتمد المجريطي في بحوثه الكيميائية على التجربة المخبرية، والملاحظة للتفاعلات الكيميائية، وما تنتجه من صور وتفاعلات كيميائية جديدة. كذلك انتبه المجريطي منذ وقت مبكّر إلى قاعدة كيميائية أصيلة هي قاعدة "بقاء المادَّة"، وهي التي لم ينتبه إليها أحد من الكيميائيين قبله، ولم ينتبه إليها أحد بعده إلا بعد أكثر من سبعة قرون، حين انتبه إليها العالمان بريستلي الإنجليزي ولافوازييه الفرنسي، وطوَّراها، وتُعَدُّ قاعدة بقاء المادَّة من أُسُس الكيمياء الحديثة.

وقد دعا المجريطي -ربما لأول مرة- إلى ضرورة اشتغال من يريد دراسة علم الكيمياء بدراسة العلوم الرياضية أولاً وتفهُّم أصولها، ليس لهذا فحسب تَعَمَّق المجريطي في العلوم الرياضية والهندسية، بل لإحساسه بأهمية الدقة والضبط التي تتصف بها العلوم الرياضية، والتي يمكن أن تمتدَّ إلى بقية العلوم الطبيعية المشتبهة بها أو المرتبطة بها، كأنه كان يتنبأ بأهمية استخدام العلوم الطبيعية خصوصًا الفلك والكيمياء بالمنهج الرياضي الكَمِّي الذي سوف تتبناه العلوم الطبيعية في العصر الحديث للتعبير عن ظواهرها وحقائقها بأساليب ورموز كمِّية رياضية بدلاً من الألفاظ والمصطلحات الكيفية والذاتية التي كانت تستخدمها قديمًا تلك العلوم.

ولا يمكن أن نُغفِل اهتمام المجريطي أيضًا بعلم الحيل أو الميكانيكا، وبالتاريخ الطبيعي، وقد اهتمّ بأثر النشأة والبيئة على تكوين ونموّ الكائنات الحية، وأيضًا بتاريخ تطور الحضارات البشرية. وقد نقَّح المجريطي زيج "السند هند" للخوارزمي في قرطبة نحو عام ٣٩٠هـ/١٠٠٠م، وقد ترجم من بعده أديلارد الباثيّ هذا الزيج المنقَّح إلى اللاتينية، مِمَّا ساعد على تطوُّر علم الفلك في بداية النهضة الأوربية.

المجريطي بين الرياضيات والفلك

لم يبرع المجريطي في علوم الرياضيات فحسب، بل برزت موهبته العلمية أيضًا في علم الفلك، وقد كان هذا العلم من العلوم الرياضية قديمًا، لذلك وجدنا المجريطي لا يكتفي بتحرير زيج الخوارزمي بل إنه يغيِّر تاريخه الفارسي إلى التاريخ الهجري، الذي يأخذ به العرب والمسلمون، ويختصر جداول البتاني الفلكية وينقلها مع كثير من العلوم التي يأخذها من المشرق العربي إلى بلاد الأندلس، حيث بقِيَت من أهَمّ مصادر المعرفة هناك، وحيث وُجدَت لها مسارب ومنافذ عبَرَها إلى أوروبا عصر النهضة بعد أن تُرجمت إلى اللغة اللاتينية. لذلك نجد رسالته عن الإسطرلاب يترجمها جون هبالينيس إلى اللاتينية، وكذلك تعليقه على إنتاج بطليموس، يترجمه رودلف أوف برجس إلى اللاتينية، إضافة إلى كتاب "الحساب التجاري".

ويذكر نفيس أحمد في كتاب "الفكر الجغرافي في التُّراث الإسلامي" أن المجريطي اختصر جداول البتاني الفلكية، فصار هذا المختصَر مرجعًا لعلماء الفلك، إضافة إلى كتبه في ثمار علم العدد، وتعديل الكواكب، والعمل على الإسطرلاب.

وعندما درس المجريطي إنتاج علماء اليونان في حقل الرياضيات، وجد نفسه مُلزَمًا بالتعليق عليها، ثم التأليف في هذا المجال الجديد على العرب والمسلمين، فكان بهذا من علماء العرب الذين طوَّروا نظريات الأعداد وهندسة إقليدس التي سادت العصر القديم زمنًا طويلاً. ثم كتب كُتُبًا في الحساب التجاري، الذي صار متداولاً في جميع أنحاء العالم. لذلك يذكر القاضي صاعد الأندلسي في كتابه "طبقات الأمم"، أن أبا القاسم المجريطي صنَّف كتابًا رائعًا يبحث في الحساب التجاري، المعروف آنذاك بحساب المعاملات، وبقيَت نظريات المجريطي في الرياضيات تُدَرَّس في جميع جامعات الغرب والشرق على السواء.

مدرسة المجريطي ومؤلَّفاته

كانت مدرسة المجريطي في قرطبة عبارة عن معهد علمي يضمُّ العلوم البحتة والتطبيقية (على غرار الجامعات التكنولوجية والمعاهد الحديثة)، وقد أنجب تلاميذ كثيرين، أنشأ بعضهم مدارس علمية في جميع أطراف العالم الإسلامي، خصوصًا بلاد المغرب والأندلس.

hiramagazine.com

ومن أشهر هؤلاء التلاميذ أبو القاسم الغرناطي (ت١٠٣٥م)، وأبو بكر الكرماني (ت١٠٦٦م)، وابن السمح، والزهراوي، وابن خلدون... وقد استقى الأخير من كتابَيه "رتبة الحكيم" و"غاية الحكيم" بعض مادة مقدمته الشهيرة، التي اعتُبر بها ابن خلدون مؤسِّسًا لعلم الاجتماع، ومصنّفًا لمختلف العلوم الإسلامية والإنسانية.

ولقد عكف المجريطي على التصنيف في فروع المعرفة المختلفة، مثل الفلك والكيمياء والحيوان والرياضيات، وقد اصطبغت مؤلَّفاته بالتعمُّق في العلوم الأساسية البحتة، وفي جوانبها النظرية، كما امتدَّت إلى العلوم التطبيقية والعملية. ويذكر خير الدين الزركلي في موسوعته "الأعلام" بعض المؤلَّفات التي صنَّفها المجريطي ككتاب ثمار العدد في الحساب (يُعرَف بـ"المعاملات")، وكتاب "اختصار تعديل الكواكب من زيج البتاني"، وكتاب "رتبة الحكيم" في الكيمياء، وكتاب "غاية الحكيم" في الكيمياء، و"رسالة في الإسطرلاب"، إلخ.

المجريطي والكيمياء

لُقِّب المجريطي بكيمياوي العرب والمسلمين لتفوُّقه في علم الكيمياء، إذ لم يتوقف في هذا العلم على المعارف والحقائق النظرية المتوارَثة من الحضارات القديمة خصوصًا الحضارة الإغريقية، بل إنه اشتغل بعلم الكيمياء، وتَمرَّس بخبراته العلمية داخل المعامل العربية والإسلامية. وقد أَلَّف فيه كتابين صارا مرجعين لعلماء الكيمياء في الشرق والغرب هما "رتبة الحكيم" و"غاية الحكيم". ويُعتبر الكتاب الأول من أهمّ المصادر التي يُعتمد عليها في تاريخ الكيمياء في بلاد المغرب والأندلس. وقد اعتمد ابن خلدون في بعض موضوعات مقدمته على بحوث هذين الكتابين، خصوصًا حين أرَّخ لعلوم الكيمياء والسيمياء والحكمة والفلاحة. كما أن كتاب "غاية الحكيم" تُرجِمَ إلى اللاتينية بأمر من الملك ألفونسو عام ١٢٥٢م. وجدير بالذِّكر أن المجريطي أرَّخ في هذا الكتاب لتطوُّر الكيمياء في القرون الوسطى السابقة له، وسجَّل مُنجَزات الأمم السابقة في الكيمياء في العالَم القديم، وفي أزمنة اليونانيين والمصريين القدماء.

وقد اتفق المجريطي مع جابر بن حيان مؤسس علم الكيمياء في الحضارة العربية الإسلامية على أن المعادن تختلف، ولكن هذا الاختلاف راجع إلى نسبة الطبائع الأربعة التي هي أساس لكل الكائنات والموجودات، كما وافقه على أن بالإمكان تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة بواسطة الإكسير، الذي توفِّره تجارب علم الكيمياء.

وقد اشتهر المجريطي شهرة كبيرة بتحضيره "أوكسيد الزئبق"، إذ لم يسبقه أحد في وصف التجربة التي أدَّت إلى تحويل الزئبق إلى أوكسيد الزئبق. وجدير بالذِّكْر أن كلاًّ من بريستلي ولافوازييه استفاد من هذه التجربة، ولم يذكر دوره العلمي في ذلك، وقد طوَّرا التجربة المعملية التي أجراها هذا العالِم المُسلِم الجليل.

وقد اعترف الغرب حديثًا بفضل المجريطي على علم الكيمياء في العصر الحديث حين قال هولميارد في كتابه "الكيمياء حتى عصر دالتون": "ويكفي المجريطي فخرًا أنه انتبه إلى قاعدة بقاء المادَّة أو الكتلة التي لم ينتبه إليها أحد قَطّ من الكيميائيين السابقين له"، وبعد مُضِيّ ستة قرون طَوَّر كل من بريستلي ولافوازييه هذه القاعدة التي لعبت دورًا مهمًّا عبر التاريخ، وتُعَدُّ من أُسُس علم الكيمياء. وقد صمَّم المجريطي فرنًا خاصًّا للتقطير الآلي، وأبدع ميزانًا حسَّاسًا بخمس صفات (كفَّات) تطفو فوق سطح الماء، من أجل إثبات الوزن النوعي لمادة كان يريد وضعها قيد الاختبار. واهتمَّ اهتمامًا خاصًّا بتجارب الاحتراق والتفاعلات التي تنتج عن هذا الاحتراق، والتغيرات التي تحدث في أوزان الموادِّ التي تحترق.

لقد وصف المجريطي تجربة أجراها بنفسه فقال: "أخذتُ الزئبق الرجراج الخالي من الشوائب، ووضعته في قارورة زجاجية على شكل بيضة، وأدخلتها في وعاء يشبه أواني الطهو، وأشعلت نارًا هادئة بعد أن غطيته، وتركته يسخن أربعين يومًا وليلة مع مراعاة أن لا تزيد الحرارة على الحدِّ الذي أستطيع معه أن أضع يدي على الوعاء الخارجي. بعد ذلك لاحظت أن الزئبق الذي كان وزنه في الأصل ربع رطل صار جميعه مسحوقًا أحمر أملس، وأن وزنه لم يتغير".

hiramagazine.com

في مثل هذه التجربة يلزم أن يزيد الوزن بقدر جزء من مئة من الرطل، ولكن المجريطي لم يلحظ ذلك، ولا شك أن السبب راجع إلى أن جزءًا من الزئبق قد تَبَخَّر، وكان نقص الوزن الناتج من ذلك معادلاً للزيادة الناشئة من اتحاد باقي الزئبق بالأكسيجين، وإنه من الجحود أن تُنسَب -كما يقول الدكتور محسن مصطفى- أمثال هذه التجارب التاريخية إلى علماء من الإفرنج، من دون أن يُشار إلى البادئين بها من العرب والمسلمين. وجدير بالذكر أن قاعدة بقاء المادَّة تقول إن "مجموع كتل الموادّ الداخلة في أي تفاعل كيميائي، مساوٍ لمجموع كتل الموادِّ الناتجة عن التفاعل". ويُضِيف الدكتور السمري، "وليس ثمة شك في أن قاعدة بقاء المادَّة التي وضعها المجريطي، تُعَدُّ إنجازًا علميًّا مبتكَرًا، لا جَرَم أن بريستلي ولافوازييه، ومَن أتى بعدهما من علماء الكيمياء، قد استفادوا منها وارتكزوا عليها للانطلاق نحو آفاق جديدة في علم الكيمياء".

من هنا لا يكون غريبًا أن نجد الدكتور علي عبد الله الدفاع، يؤكِّد أن كتاب "غاية الحكيم" للمجريطي لا يستغني عنه باحث في تاريخ الحضارة الإسلامية خلال القرون الوسطى، فهو لا يحتوي على تاريخ الكيمياء فقط، بل على كثير من الاستنتاجات العلمية التي تَوَصَّلَت إليها الأمم السابقة للأُمَّة العربية الإسلامية في كل من الكيمياء والفلك والرياضيات وعلم الحِيَل (الميكانيكا) والتاريخ الطبيعي. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

المراجع

(١) الفلك عند العرب والمسلمين، للدكتور زين العابدين متولي، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م.

(٢) العلوم البحتة في الحضارة العربية، للدكتور علي عبد الله الدفاع، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت ١٩٨٣م.

(٣) عمالقة العلوم التطبيقية، لسليمان فياض، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م.

(٤) العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، لدونالد ر.هيل، ترجمة د.أحمد فؤاد باشا، عالم المعرفة، العدد:٣٠٥، الكويت، يوليو ٢٠٠٤م.

(٥) أبو القاسم المجريطي كيمياوي العرب والمسلمين، للدكتور محمد مصطفى السمري، منار الإسلام، العدد ٣٧٥، أبريل ٢٠٠٦م.

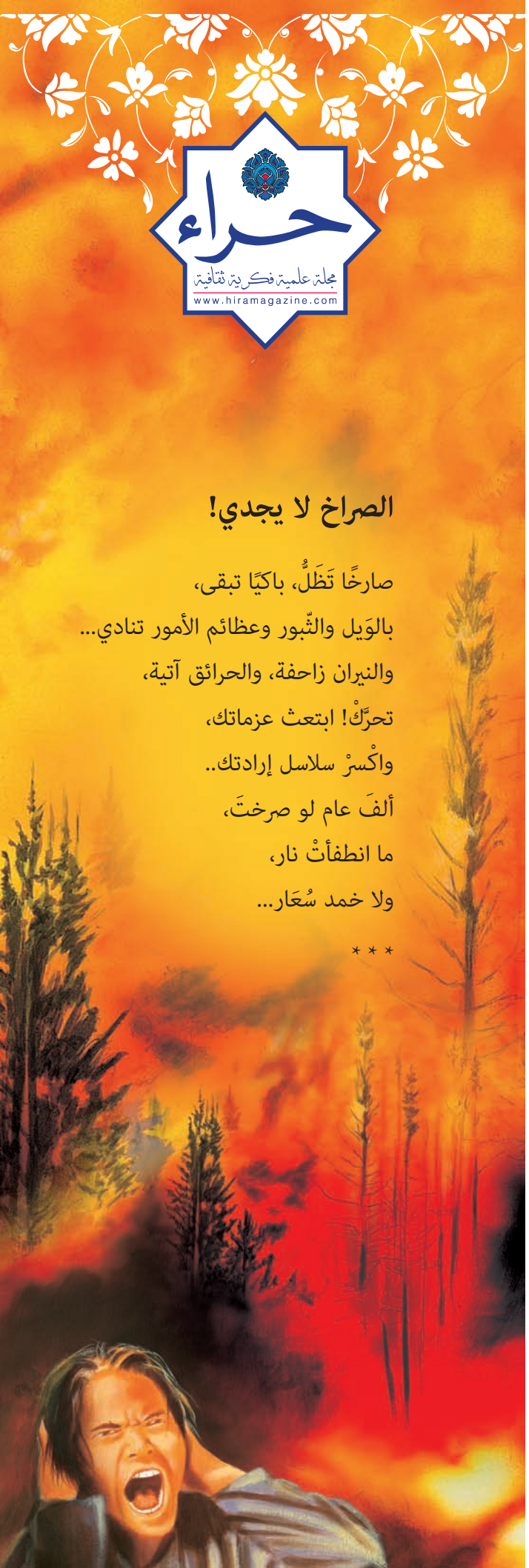

د. إسماعيل إسماعيلي علوي*

الجمال المعنوي والفني من خلال "البلبل"

لقد كتب سعيد النُّورْسِيّ (رحمه الله تعالى) نَصّ "البلبل"[1] للتعبير عن معنى من أجمل المعاني في الوجود، واستطاع أن يقدِّم ذلك في حُلَّة فنية رائعة، وهذه القطعة الأدبية ترقى بصاحبها إلى مصافِّ الأدباء الإسلاميين الكبار، فهو في هذه القطعة يرتفع إلى القمة التي ارتفع إليها شاعر الصوفية الأكبر مولانا جلال الدين الرومي".

ويمكن إدراج هذا النَّصّ الإبداعي ضمن المقالة الفنية التي استطاع بها صاحبها أن يطرح أمامنا جملة من المعاني ساقها في حديثه عن البلبل ومحاورته إياه، وقد تمّ ذلك في صورة تجلب القارئ إليها، وتستدعيه للمشاركة في ما احتوى عليه هذا النَّصّ من أفكار ومعانٍ سامية.

يقول في الكلمة السابعة عشرة من الكلمات عن قطعة من قطعه الفنية وفيها ذكر للبلبل وللأزهار: "هذه القطعة الواردة في المقام الثاني جاءت بما يشبه الشعر إلا أنها ليست شعرًا، ولم يقصد نظمها بل إن كمال انتظام الحقائق جعلها تتخذ شكلاً شبيها بالنظم"، وهذه القطعة كالتالي:

إنما الشكوى بلاء.

بل بلاء في بلاء، وآثام في آثام وعناء.

إذا وجدتَ مَن ابتلاك،

عاد البلاء عطاءً في عطاء، وصفاءً في صفاء.

دَعِ الشكوى، واغنم الشكر، فالأزهار تبتسم من بهجة عاشقها البلبل.

فبغير الله دنياك آلام وعذاب، وفناء وزوال، وهباء في هباء.

وكان هذا الرجل (رحمه الله) يسعى في كتاباته جميعها إلى الوقوف على المعاني التي من شأنها أن تقرِّبنا إلى الله، ويقول سمير رجب محمد في كلمة عن مكانة المعنى في الأسلوب الأدبي: "يرى بديع الزمان ضرورة ترجيح المعنى على اللفظ، وهنا نرى أن بديع الزمان يبيِّن أهمية المعنى في الكلام، لدرجة أنه يعتبر أن الكلام الخالي من المعنى كجسد بلا روح".

وقد اختار النُّورْسِيّ في هذا النَّص "البلبل" دون

سواه من الطير لما له من دلالات عميقة في محور المعنى الذي أراد أن يقدمه لنا، هي الشكر لله والثناء عليه والتسبيح له، وتبيان مكانة محمد رسول الله ﷺ في هذا الوجود مسبِّحًا لله وشاكرًا لنعمه، باعتباره: "ذلك الصدَّاح بنغمات جميع الموجودات في الأرض والسماوات، باعث الأشواق إلى الله، وحادي القلوب والأرواح إلى بارئها، المغرد بالقرآن، والصدَّاح بآيات الله".

والحديث عن النَّبيّ الكريم محمد ﷺ جاء في آخر النَّص، وكان تقديم الحديث عن البلبل وعن بلابل الكائنات قبل ذلك، لأجل أن يبيِّن لنا أن أحسنها وأجملها هو هذا النَّبيّ الكريم ﷺ.

وفي هذا الأمر إظهار لمكانة الرسول الكريم بين الأنبياء والرسل، أولاً لأنه خاتَمها والمقدَّم عليها عند الله تعالى، وإظهار لمكانة هذا الرسول ﷺ وسط هذه المخلوقات على أشكالها وأنواعها وأنه سيِّدها.

وبهذا اتَّخذ النَّصّ طريقة الانتقال من الأدنى إلى الأعلى، وكان البلبل وغيره في النَّصّ خادمًا للفكرة الأخيرة التي آل إليها النَّصّ في خاتمته.

ويحدِّد لنا سعيد النُّورْسِيّ (رحمه الله) الغايات التي يستعمل الله ﷻ فيها هذا الطائر العجيب فيقول: "فمثلاً: البلبل المعروف بعاشق الورود والأزهار، يستخدم الفاطرُ الجليل ذلك الحيوان الصغير ويستعمله في خمس غايات:

أُولاَها: أنه مأمور ومكلَّف -باسم القبائل الحيوانية- بإعلان شِدَّة العلاقة تجاه طوائف النباتات.

ثانيتها: أنه موظَّف بإعلان الفرح والسرور، والترحيب بالهدايا المرسلة من قِبَل الرزاق الكريم، حيث إنه خطيب ربَّاني يسأل بتغريده أرزاق الحيوانات -ضيوف الرحمن- المحتاجين إلى الرزق.

ثالثتها: إظهار حسن الاستقبال على رؤوس النباتات جميعًا، تعبيرًا عن إرسال النباتات إمدادًا لبني جنسه من الطير والحيوان.

رابعتها: بيان شِدَّة حاجة الحيوانات إلى النباتات التي تبلغ حدّ العشق تجاه الوجوه المليحة للنباتات وإعلانها على رؤوس الأشهاد.

خامستها: تقديم ألطف تسبيح إلى ديوان رحمة مالك الملك ذي الجلال والإكرام في ألطف شوق ووجد، وفي ألطف وجه وهو الورد.

وقد سبقت الإشارة إلى أن التسبيح من أهمّ المعاني الواردة في هذا النَّصّ، وكان صاحب النَّصّ يؤكد قيمة التسبيح في مناسبات أخرى، فهو يقول مثلاً في إشارات الإعجاز: "حتى إن السمعَ ليسمعُ من ترنُّمات هبوب الريح، ومن نعرات رعد الغيم، ومن نغمات أمواج البحر، ومن صرخات دقدقة الحجر، ومن هزجات نزول المطر، ومن سجعات غناء الطير كلامًا ربانيًّا، ويفهم تسبيحًا علويًّا".

ويقف سعيد النُّورْسِيّ عند مسألة التسبيح وقفات له دلالاتها الكبيرة في إعطاء التسبيح قيمته في حياتنا الخاصة والعامة، وقد جاء في المثنوي العربي النوري:

هذه نَورةُ من شجرة آية: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾(الإسراء:٤٤) رأيتها وقت انكشاف الأزهار من الأشجار في زمن الربيع، فهيّجت جذبتي فتفكرتُ في تسبيحاتها، فتكلمت "أنا" لي لا لغيري بهذه التسبيحات الفكرية، فظهرت هكذا في بعضها رقص الجذبة بنوع وزن يشبه الشعر وليس بشعر، بل قافية ذِكْر في جذبة فِكْر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يسبِّح له كلُّ شيء بكلماته المخصوصة المبصرة كالمسموعة، مثلاً:

الأنوارُ والأنهارُ والإعصار كلماتُ الضياء والماء والهواء فقِسْ.

سبحان مَن يحمده:

الضياءُ بالأنوار، والماء والهواء بالأنهار والإعصار،

والترب والنبات بالأحجار والأزهار...

والجوّ والأشجار بالأطيار والأثمار...

والسحب والسماء بالأمطار والأقمار...

تلألؤُ الضياءِ من تنويره، تشهيره...

تموُّج الهواءِ من تصريفه، توظيفه...

تَفَجُّرُ المياهِ من تسخيره، تدخيره مدحٌ بليغٌ بيِّنٌ للقادر.

hiramagazine.com

تَزَيُّن الأحجارِ من تدبيره، تصويره...
تَبَسُّم الأزهارِ من تزيينه، تحسينه...
تَبَرُّج الأثمار من إنعامه، إكرامه حمدٌ جميلٌ ظاهرٌ للفاطر.
تَسَجُّع الأطيارِ من إنطاقه، إرفاقه...
تَهَزُّج الأمطارِ من تنزيله، تفضيله...
تَحَرُّك الأقمارِ من تقديره، تدويره تسبيحةٌ فصيحةٌ للقادر، بل آيةٌ نيّرة للقاهر.

ولـ"سبحان الله العظيم" شفاء من الألم والحسرة التي يعيشها الإنسان، كيف لا تكون شفاء وهذا الإنسان الضعيف يتوجَّه بها إلى الغني خالق الكون ويسبحه؟ يقول النُّورْسِيّ: "اعلم! أن مَن في قلبه حياة إذا تَوَجَّه إلى الكائنات يرى من عظائم الأمور ما لا يحيط به ويعجز عن إدراكه ويتحيَّر فيه، فللتشفِّي من ألم الحيرة يشتاق إلى "سبحان الله" كتعطُّش العليل الغليل إلى الماء الزلال".

ومسألة التسبيح عامة لكل المخلوقات. قال النُّورْسِيّ: "سبحانك يا مَن تسبح بحمدك الهوامُّ في الهواء عند دورانها بزمزمة هَزَجاتها بشكرك، والطيورُ في أوكارها مع أفراخها بسجعاتها ونغماتها شكرًا لك، بلسان نظامهما وميزانهما وصنعتهما ونقوشهما وزينتهما، كما تناديان إحسانك، وتصيحان على نعمتك بإظهار شكرك في وقت تلذُّذاتهما بثمرات نعمتك، وتنغُّماتهما بآثار رحمتك، كما تسبِّح بحمدك الحشرات في قرارها بدمدمتها، والوحوش في قفارها بغمغمتها بألسنة نظاماتهما وموازينهما وصورهما وأشكالهما وتنغُّماتهما الكريمة وتقلُّباتهما الحكيمة".

وفي اختيار صاحب النَّصّ الطيرَ دلالةٌ على أنه يتحدث عن عوالم قائمة الذات بما حباها به الله من قوة وجمال وتدبير. ولعل المراد بالحديث عن هذه العوالم يُحيلُنا إلى مسألة مهمة، هي أن هذه المخلوقات أمم كما قال ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(الأنعام:٣٨).

وممَّا لا شكَّ فيه أن معرفة الإنسان بهذه الأمم محصورة قليلة، مهما بلغ هذا الإنسان من العلم والمعرفة، خصوصًا في معنًى من المعاني المراد

أشار النُّورْسِيّ إلى أن الرسول الكريم محمدًا ﷺ هو أفضل المسبِّحين وهو "المغرِّد بالقرآن"، والتغريد بالقرآن تستجيب له كل المخلوقات لما يحمله من جمال وجلال، أليس القرآن كلام الله ﷻ؟

حراء

تبليغها في نص النُّورْسِيّ وهو التسبيح لله ﷻ، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(الإسراء:٤٤)، وقد وقف سعيد النُّورْسِيّ مع هذه الآية كذلك، والذي يهمُّنا من هذه الآية بخاصة هو أن كل شيء يسبح بحمد الله تعالى بما في ذلك الجماد. يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾(ص:١٨).

كما يقول جلّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(النور:٤١).

إن مسألة التسبيح من أعظم المعاني التي يغفل عنها كثير من الناس، والنظر إليها بنوع من التدبُّر يؤدِّي -دُونَ شكّ- إلى التفكُّر في خلق السماوات والأرض كما دعانا إلى ذلك سبحانه وتعالى، وهذا ما كان ينبه إليه النُّورْسِيّ من خلال الآيات التي تدور في هذا المحور.

أسلوب الحوار مع البلبل

وقد لجأ المؤلِّف إلى أسلوب الحوار مع البلبل في هذه القطعة الأدبية، ومن جملة الأفكار التي يبينها هذا الحوار:

١- أن هذا البلبل ربما يقول أشياء لا نرقى إلى فهمها: "وربما أنت تقول أشياء أخرى لا نرقى إلى فهمها، وتُودِع أُذُن الكون رسائل لا ندرك كنهها، ولا نعلم سرَّها".

٢- ربما لا يفهم البلبل مقاصد ما يؤدِّيه: "وربما أنت نفسك لا تفهم مقاصد ما تؤدِّيه، ولا تدرك مغازي ما تفعله، ولكنك رغم ذلك سعيد بعملك".

٣- يوجَد مَن هو أقدر على فهم هذه الرسائل التي تنقل إلى العزيز القدير عالَم الأسرار: "أما الملائكة والرُّوحانِيُّون المبثوثون في أرجاء هذا الكون، فإنهم

hiramagazine.com

أقدر منَّا ومنك على فهم ما تقول، وعلى إدراك ما تعني، وهم بدورهم يرفعون رسائلك وينقلون أحاديثك إلى الله سبحان وتعالى".

٤- تقرير أن لكل مخلوقات الله ﷻ "بلابلها": "ولا يذهَبَن بك الوهم أيها الإنسان فتحسب أن "البلابل" هي لعالم الطيور وحدها، وأن أنواعًا أخرى من مخلوقات الله لا تعرف من يسبح باسمها ويرفع آيات الشكر والحمد لبارئها، فلكل صنف ونوع بلبله الخاص به، وحتى العناكب والنمل والنحل... لها بلابلها التي تلحِّن تسابيحها".

وقد قَرَنَ النُّورْسِيُّ هذه العوالم وما يدور فيها من تسبيح، كلٌّ بلغته، إلى فعل المرشدين والأقطاب، فقال: "وقسم من هذه البلابل ليلية التغريد، فهي تنشد قصائدها في دواوين الليل الساجي، فتحرِّك بهذا النشيد في هدوات الليالي مكنونات القلوب، ومشاعرَ الأرواح، تمامًا كما يفعل الأقطاب والمرشدون في تحريك الذاكرين". وهذه البلابل تدبّج قصائد -ولا يخفى عنَّا ما تحمله القصائد من أبعاد جمالية ودلالات عميقة- تمَسُّ النفس والروح والوجدان، وتحرِّك العقل وتطهِّر القلب، بخاصة أنها نابعة من فطرة سليمة.

ويريد صاحب النَّصّ أن يبين لنا كذلك أن لهذه المخلوقات رئيسًا ومسيِّرًا لها في ألحانها وتسبيحها: "فلكل نوع من أنواع الموجودات وحتى الأفلاك والنجوم، لها رئيسها الذي يقود حلقة الذكر فيها وبلبلها الذي يلحِّن في عتمة الفضاء الواسع أنوارها ويغرد أضواءها".

والعبرة من هذا التناسق والتدبير الدقيق، أن كل شيء يسبِّح لله تعالى في نظام و تناسُق تامَّيْن، مِمَّا يُفضِي إلى جمال خاصّ بهذا الكون من عناصره الدقيقة الصغيرة إلى العناصر الكبيرة الضخمة، فسبحان الله العظيم!

وقد أشار النُّورْسِيّ إلى أن الرسول الكريم محمدًا ﷺ هو أفضل المسبِّحين وهو "المغرِّد بالقرآن"، والتغريد بالقرآن تستجيب له كل المخلوقات لما يحمله من جمال وجلال، أليس القرآن كلام الله ﷻ؟

يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(الحشر:٢١)، وبالقرآن تطمئنّ القلوب: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد:٢٨).

ونستخلص من هذا النَّصّ الأدبي، أن التسبيح للمولى جلَّت قدرته تتبعه هدايا، فهذه البلابل -والبلابل هنا لمخلوقات أخرى إلى جانب الطيور كما سبقت الإشارة- التي تسبِّح وتغرِّد "لها هداياها التي تحصل عليها من خلال عملها، من المُتَع الذوقية والجمالية التي تدفعها إلى الجدّ في أداء واجبها في خدمة الصنعة الربانية".

ومن التقنيات الأسلوبية التي يلجأ إليها سعيد النُّورْسِيّ، أنه يقارن بين هذه المخلوقات والمرشدين والأقطاب كما مرّ بنا، كما أنه يمثِّل عمل هذه المخلوقات في أداء واجبها وحصولها على هدايا ربانية بقوله: "مَثَلها في ذلك مَثَل القبطان الذي يقود سفينة سلطانية في عُرْض البِحَار، فإنه زيادة على المرتب الذي يتقاضاه من خزانة الدولة، فهو يستمتع ويلتذّ بما يشاهد من مناظر جمالية تعرض له في أثناء إبحاره وتطوافه بين الضفاف والشواطئ".

كما يجعل البلبل مثل "الساعة تشير إلى الزمن، وتعلمنا الوقت ولكنها لا تعلم هي ما تفعل".

ومن التقنيات المستعمَلة في هذا النَّصّ كذلك نجد الحوار المبنيّ على المسألة بين صاحب النَّصّ والبلبل أو البلابل كقوله: "هذا بعض ما نستشفُّه من ألحانك أيها البلبل العزيز، وربما أنت نفسك لا تفهم مقاصد ما تؤدِّيه، فجهلك يا بلبلي العزيز بهذه الغايات لا يعني عدم وجودها".

كما يستعمل تقنية الوصف الجميل الذي يجعلك تُحِسُّ بجمال ما يحكيه صاحب النَّصّ، وكل النَّصّ وصفٌ بارع في مواقف مختلفة، ولكن سنعرض بعض ذلك من خلال بداية النَّصّ ونهايته من أجل تبيان أهمية الوصف الفاعل والوظيفي في هذا النَّصّ. يقول في بداية عمله: "أيها البلبل الغِرِّيد، يا ملك اللحن والغناء، يا صناجة الطير وقيثارة الغاب"، كما أنه يقول عن الرسول الكريم ﷺ: "إنه أفضل بلابل الكون وأشرفها، وأعذبها صوتًا وأعلاها نداءً وأرقُّها مشاعرَ، وألطفها حِسًّا، وهو ألمَعُ بلابل البشرية من الأنبياء والمرسلين نورًا،

hiramagazine.com

وأتمُّهم ذِكْرًا، وأعظمهم شكرًا وأكملهم مَاهِيَّة وأجملهم وأبهاهم صورة".

ويلجأ النُّورْسِيّ أيضًا إلى إعطاء أسلوبه حرارة خاصة بفعل الأمر الذي يستعمله في حواره في هذا النَّصّ فيقول: "تَغَنَّ يا عاشق الأزهار، اسكبْ حنان قلبك، فاعتصر لذاذات عملك من جمال الأزاهير، وتناول أذواق قلبك، وابْثُثْ ما شئت من أحزان".

إنه يلجأ أيضًا إلى التصوير الحيّ الذي يقدّم لك صورة دينامية عن العنصر المصوَّر، فهو يقول مثلاً عن البلبل: "تنتقل من فنن إلى فنن وتطير من زهرة إلى أخرى جَذْلاَنَ منتشيًا، فيستخفُّك الفرح ويهزُّك الكَرَم الإلهي العميم فتصفّق بجناحيك الصغيرَين".

ومما سعى إليه هذا النَّصّ أنه بيَّن عجز المخلوقات -ومنها الإنسان الذي كرَّمه الله تعالى بالعقل- عن إدراك أسرار هذا الكون، لهذا يقول بعد حديثه عن ألحان البلبل: "هذا ما نستشفُّه من ألحانك أيها البلبل العزيز وبعض ما نَحْدِسُه من تغاريدك، وربما أنت تقول أشياء أخرى لا نرقى إلى فهمها، أما الملائكة والرُّوحانيون المبثوثون في أرجاء الكون، فإنهم أقدر على فهم ما تقول، وعلى إدراك ما تعني، وهم بدورهم يرفعون رسائلك،وينقلون أحاديثك إلى الله ﷻ".

فقد قال بعض ما نستشِفُّه، وهناك إذن كثير مِمَّا لا نعرفه من دلالات التغريد والغناء، ولكن في هذا النَّصّ إشارة إلى مسألة أخرى هي التدرُّج في فهم أسرار هذا الكون، من البلبل إلى الإنسان إلى الملائكة التي ترفع بدورها هذه الألحان إلى الله ﷻ، وهو العليم الخبير بالأسرار كلها، ولا يشاركه في ذلك مخلوق، ويريد هذا النَّصُّ أن يبيّن لنا أن الحياة من حولنا في حركة دائبة، ولكننا لا نُعيرُها ما تستحقُّ من عناية وفهم وتَبَصُّر، فالبلبل يسبّح وله علاقة من الوردة والزهرة، إذ يغمرها بفيض حبه ومُذاب عشقه، وهذا البلبل يسبّح عن كل زهرة ويذكر "بلسان كل وردة على عتبة مقسّم الأرزاق، ومالك الملك".

ومما لا شك فيه أن الصوت الحنون الشجي لهذا الطائر يمَسّ كل الكائنات المحيطة به، وهذا أمر كل المخلوقات الأخرى التي لها بلابلها كما يوضح النَّصّ، فكأن الكون مجموعة موسيقية تؤدّي ألحانًا مستمرَّة، وكل واحد يؤدّي دوره المنوط به في بناء هذه الألحان. يقول سعيد النُّورْسِيّ: "وعندئذ يبدأ الجميع -كلٌّ بلغته الخاصة وعلى قدر حاله- بذكر الله ﷻ والتوجُّه إليه بالشكر والمحبة والتعظيم والخشوع".

وقد اختار صاحب النَّصّ أقدر المخلوقات للتعبير عن الأفكار التي يريد أن يوصلها للقارئ، فهناك البلبل وهو عنده مَلِك اللحن وصنَّاجة الطير، وهناك الزهرة وهي: "ملكة النبات وأميرة الحقول والبساتين والغابات".

وقد قال إن لكل الكائنات بلبلها، بمعنى أنه يركِّز على الجانب الجميل فيها والقويّ، وكان هذا يخدم تنامي النَّصّ وتدرُّجه، لأنه في آخر المطاف سيتحدث عن أجمل خلق الله تعالى وأفضلهم منزلةً عنده سبحانه، وهو الرسول الكريم ﷺ.

ومما يُلمَس في هذا النَّصّ، أنه يدفع القارئ المسلم بخاصة إلى التفكُّر في ملكوت الله تعالى، وفي قدرته سبحانه على التحكُّم في الكون وتدبيره بكل انسجام، كما يبيّن لنا أن جمال الخالق وجلاله أمامنا في كثير مِمَّا حولنا.

ويلاحَظ أن أسلوب هذا الرجل يسعى إلى الإقناع وبسط القول في أي موضوع يُراد معالجته، واللجوء إلى الحوار والتمثيل والوصف والإشارة الخاطفة يرتبط بأسلوبه العامّ في كتاباته، لأنه صاحب رسالة ويريد أن يبيّن للخصوم ولغيرهم صدق ما يقوله. ■

(*) جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة / المغرب.

الهوامش

(1) الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، دار سوزلر، إستانبول.

hiramagazine.com

صلاح عبد الستار الشهاوي*

النوم على الشِّق الأيمن

١ النَّوم غريزة أو ظاهرة عجيبة في حياة الإنسان ومعظم المخلوقات، ومع ذلك فقد عجز العلماء عن إعطاء التفسير الدقيق لهذه الظاهرة، فالنَّوم أشبه ما يكون بحالة الموت من حيث انقطاع النائم عن العالم الخارجي المحسوس مع الفارق في بقاء الخلايا حية.

أظهرت دراسة حديثة لهيئة الإحصاء الكنَدية أن ربع الراشدين الكنَديين يعانون مشكلات في النَّوم، ويقدِّر الخبراء أن مئة مليون أمريكي لا يحصلون على كفايتهم من النَّوم. وفي ألمانيا أُجرِيَ استطلاع على ألف

وخمسمئة شخص تتراوح سِنُّهم بين ١٨ و٢٥ سنة من الشعب الألماني، فكانت النتائج أن نسبة تسعة عشر بالمئة من هذه الفئة العمرية يعانون اضطرابًا أثناء النَّوم، مِمَّا يجعلهم مُنهَكين خلال النهار، وأن ثلاثين في المئة يعانون مشكلات أقلّ خطورة في نومهم.

وكل يوم نطالع نصائح الاختصاصيين والخبراء الطِّبيين من أنحاء عديدة من العالم لأجل نوم هادئ عميق، من أهمِّها مساعدة الجسم على اكتساب نظام ثابت للنوم والاستيقاظ. والمعجز هنا عند الاطلاع على هذه النصائح، تَوافُقها مع تعليمات النَّبيّ ﷺ وهديه. ولا شكّ أن التفات الطب النَّبويّ إلى أهمية النَّوم، يدلّ على حكمة بالغة وإلمام شامل بما يحفظ على الإنسان صحَّته وسعادته وقدراته الجسدية والعقلية والنفسية. فقد جاء في الحديث الشريف أنّ الأفضل أنْ ينام الإنسان على شقه الأيمن، فعن البراء بن عازب أن النَّبيّ ﷺ قال: "إذا أتيتَ مضجعك فتوضأ وضوءَك للصلاة، ثم اضطجع على شِقِّك الأيمن" (رواه أبو داود). وقد أيَّد الطب حديث الرسولَ ﷺ حين اكتشف أن الحكمة من النَّوم على الجانب الأيمن ترجع إلى:

أن النَّوم على الجانب الأيمن، يمنع الضغط على المعدة ويساعدها على تفريغ محتوياتها، كما يسهِّل عمل القلب فيمنع ضغط المعدة والحجاب الحاجز عليه، وهذا ما يجعل بعض من ينامون على الجانب الأيسر يستيقظون فجأة من النَّوم وهم يُحِسُّون كأن قلوبهم توشك أن تتوقف عن العمل، وسبب الإحساس في الغالب هو امتلاء المعدة.

ولا يفوتنا كذلك أن كثرة الغازات في المعدة قد تؤدِّي إلى الإحساس نفسه بسبب الضغط على الحجاب الحاجز ومن ثَمَّ على القلب.

وقد أثبتت التجارب التي أجراها عديد من أطباء الغرب، أن مرور الطعام من المعدة إلى الأمعاء، يتمّ في مدة تتراوح بين ساعتين ونصف، وأربع ساعات ونصف، إذا كان النائم على الجانب الأيمن، ولا يتم ذلك إلا في مدة تتراوح بين خمس ساعات وثماني ساعات (أي نحو ضعف المدة) إذا كان النائم على

إن النَّوم على الجانب الأيمن، يمنع الضغط على المعدة ويساعدها على تفريغ محتوياتها، كما يسهِّل عمل القلب فيمنع ضغط المعدة والحجاب الحاجز عليه.

الجانب الأيسر.

كما أثبتت التجارب أن النَّوم على الجانب الأيسر، يجعل الرئة اليمنى تضغط على القلب وتقلل نشاطه. والرئة اليمنى -كما هو معلوم- أكبر من الرئة اليسرى، إلى جانب كون الكبِد التي هي أثقل الأحشاء معلَّقةً عند الاستلقاء على الجانب الأيسر. هذا بعينه ما دعت إليه السنة النَّبويَّة في هدي الرسول ﷺ.

كما أكدت الدراسات الطبية الحديثة أن أردأ أنواع النَّوم هو النَّوم على الظّهر أو بعد تناول الطعام، إذ إن امتلاء المعدة بالطعام يضغط على الشرايين والأوردة، وبهذا يعرقل وصول الدم من هذه المناطق إلى القلب، مِمَّا يقلِّل كمية الدم الواصلة إلى المخ، لهذا تكثر الأحلام المزعجة أثناء النَّوم على الظهر بعد الأكل مباشرة.

ومن هدْيِه ﷺ نهْيُه عن النَّوم في الشمس، والدراسات الحديثة، أكدت أن النَّوم في الشمس يؤدِّي إلى الإصابة بأمراض الجوِّ الحارِّ المعروفة، وهي الإنهاك الحراري، والانهيار الحراري، وضربة الشمس، وتقلُّص العضلات المؤلم، والإصابة بسرطان الجلد في الأماكن المكشوفة نتيجة الإشعاع.

النَّوم في التُّراث العربي

عرَّف الأطباء العرب النَّوم بأنه رجوع الحواسّ عن الحركة، وسكون النفس وانقباضها مع الحرارة الغريزية من الدماغ إلى داخل الجوف، وبخارات معتدلة تصعد من الجوف إلى الدماغ.

وعندهم أن النَّوم يُرطِّب البدن ويسكِّن الإعياء والقلق، وقد وضع قسطا بن لوقا كتابًا فيه: هذا هو النَّوم الطبيعي، أما السهر فيجفِّف وينحِّف ويضرّ بالدماغ جدًّا، حتى إنه ربما خلط العقل وجلب الأمراض الحادَّة. ولم يكتفِ الأطبَّاء العرب بهذا، بل درسوا أشكال النَّوم، مثل

hiramagazine.com

النَّوم على القفا -الظهر- أو على اليمين والشمال أو الوجه، وبَيَّنُوا متى يُستحَبُّ النَّوم ومتى لا يُستحَبّ، وقد سماها ابن سينا "موجبات النَّوم واليقظة وأثرها على جسم الإنسان"، وكانت القاعدة العامة في هذا أن من رغب الصحَّة فعليه أن يقوم من فراشه في السُّبع الأخير من الليل.

يقول الماوردي عن الراحة والنَّوم في كتابه "أدب الدنيا والدين": "واعلم أن للنفس حالتين: حالة استراحة إن حرمْتَها إياها كلَّت، وحالة تصرُّف إن أرَحْتَها فيها تَخَلَّت.. فالأَوْلى بالإنسان تقدير حالَيه: حال نومه ودَعَته، وحال تصرُّفه ويقظته، فإن لهما قدرًا محدودًا، وزمانًا مخصوصًا، يضرُّ بالنفس مجاوزة أحدهما وتغيُّر زمانهما. فقد رُوي عن النَّبيّ ﷺ أنه قال: "نومة الصبحة مُعجِزة منفخة مكسلة مورمة مفشلة منسأة للحاجة". وقال عبد الله بن عباس ﷺ: النَّوم ثلاثة "نوم خرق وهي الصبحة، ونوم خلق وهي القائلة، ونوم حمق وهو العشى". وقد روى محمد بن يزداد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: "نوم الضحى خرق، والقيلولة خلق، ونوم العشى حمق". وقيل في منثور الحكم: "مَن لَزِمَ الرُّقاد، عَدِمَ المُرَاد فإذا أعطى النفس حقَّها من النَّوم والدَّعة، واستوفى حقه بالتصرُّف واليقظة، خَلُص بالاستراحة من عجزها وكلالها، وسَلِم بالرياضة من بلادتها وفسادها". وحُكِيَ أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فوجده نائمًا، فقال: "يا أبتِ، أتنام والناس بالباب؟ فقال يا بُنَيَّ، نفسي مطيَّتي، وأكره أن أُتعِبَها، فلا تقوم بي".

وينبغي أن يقسم حالة تصرُّفه ويقظته على المهمّ من حاجاته، فإن حاجة الإنسان لازمة، والزمان يقرّ عن استيعاب المهمّ، فكيف به إن تجاوز إلى ما ليس بمُهِمّ، هل يكون إلا كتاركةٍ بيضَها بالعراء، ومُلبِسةٍ بَيضَ أُخرَى جناحًا.

وعَدُّوا للنوم فوائد، منها سكون الجوارح وراحتها مِمَّا يَعْرِض لها من التعب فيريح الحواسّ من نَصَب اليقظة، ويُزيل الإعياء والكلال، ويخلِّص الجسم من السموم المتراكمة فيه. ونصَحُوا المريض بالنَّوم، بخاصة في الأمراض العارضة كالضَّعف والحُمَّى.

وفي الطب الحديث، النَّوم أحد الوظائف البيولوجية المعقَّدة التي تختلف اختلافًا بيّنًا بين الأشخاص، فهو حاجة وظيفية فسيولوجية مُلِحَّة، فنحن نقضي ثلث عمرنا نائمين. والنَّوم أيضًا ظاهرة دماغية، أي إنه ضرورة للدماغ -ذلك الحاسوب- الخارق الفريد الذي نطل به على العالم عبر نوافذ العين والأذن والأنف واللمس والتذوق.

وتقول عن النَّوم دائرةُ معارف الكتاب العالمي: النَّوم أكثر من مجرَّد فترة راحة، ففي أثناء النَّوم تحدث تغيُّرات في الجسم تؤثِّر في جهاز المناعة، فقد اكتشف العلماء ارتباطًا واضحًا بين استجابة جهاز المناعة والنَّوم العميق، والنَّوم يقدم فرصة لأجزاء الجسم كي تسترخي مُبطِلةً مفعول الاستهلاك من النشاط اليومي، ومن أكثر وظائف النَّوم أهميةً السماحُ للجهاز العصبي بأن يتعافى بسبب استعماله خلال النهار.

مَضَارُّ عدم النَّوم

إذا لم ينَم الإنسان ظهرَت عليه علامات الإعياء والتعب، وتضاءلت كمية عمله ونوعه ودقته وقَلَّ تركيزه، كما ينقص وزنه، لأنه لم تُتَح الفرصة للجسم لكي يُعيد ما استُهلك منه في أثناء العمل اليومي، وقد يُصاب الإنسان في النهاية بحاله نفسية سيّئة قد تصل به إلى الجنون.

كم وكيف ينام الإنسان؟

إن النَّوم الهنيء ضروري للإنسان، والنوع هنا أهمُّ من الكَمّ، فالنَّوم بين ٦ و٨ ساعات عميقة متواصلة خير من النَّوم المتقطع المزعج، والنَّوم ليلاً هو الطبيعي المفيد صحِّيًّا، مع أننا نرى البعض يقلب نهاره ليلاً وليله نهارًا. فالنَّوم في عتمة الليل مُريح، بينما ضوء النهار يؤثِّر على الدماغ والغدد الصنوبرية، ويجعل نومنا قلقًا وحياتنا جحيمًا. يقول الحق ﷻ في كتابه العزيز: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾(النبأ:٩-١١). ■

(*) باحث في التراث العربي والإسلامي/ مصر.

عبد الوهاب بوخلخال*

الإسلام دين الإنسان

لا شك أن الخطاب القرآني مع الإنسان، سيأتي منسجمًا مع خطابه عنه، بمعنى أن الله تعالى سيتحدث إلى الإنسان انطلاقًا من الصورة التي تحدث بها عنه.

وكذلك كان، فقد جاءت شريعة الله تعالى إلى الإنسان، في صورتها الخاتمة مع النبي ﷺ متناسبة مع الصورة التي رُسمت لهذا الإنسان.

والقرآن يشير إلى هذه الحقيقة، عندما يقص علينا مسيرة الإنسان من خلال قصص الأنبياء، تلك القصص التي نفى عنها الله تعالى العبث والكذب، فكانت بذلك تأريخًا لمراحل الترقي التي قطعها الإنسان، من سذاجته الأولى إلى نضجه، هذا النضج الذي لا تعرف آفاقه ولا حدوده.

وإجمالاً، لنا أن نقول إن القرآن خاطب الإنسان باعتباره صانعًا للحضارة أو مكلّفًا بصناعتها.

وهذه قضية تدرك من النظر إلى الشريعة الإسلامية في كلياتها ومقاصدها كما في جزئياتها وتفاصيلها، فنحن نجد الإسلام في مقاصده الكبرى أو عند المقاصد الجزئية المرتبطة بتفاصيل أحكامه، ينطلق من نقطة واحدة، هي تكليف الإنسان بتحقيق الحياة اللائقة به ككائن مكرَّم، ولا يكون ذلك إلا بالتحقق، بوصف الخلافة في نطاق العبادة والعمارة.

فالإنسان خوطب من قبل أن يوجد على الأرض بخطاب يدعوه إلى أن يكون معمرًا لها، بل هوية هذا الموجود الجديد تحددت أول ما تحددت بوظيفته، حتى من قبل أن يخرج من العدم إلى الوجود حين أعلن الحق تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠).

وهذه الخلافة التي طُلب من الإنسان -كما قلنا- تحقيقها ضمن "العمارة والعبادة"، هي التي دار حولها الخطاب القرآني للإنسان، مطلق الإنسان، كي يعمر الأرض ولا يخربها، ويعبد الله ولا يتنكر له، وهو ما يعطي لحركته في هذه الدنيا مفهومًا إيجابيًّا للتعمير لا مجرد تكديس للمنتجات، يؤدي بالإنسان البعيد عن الله المنقطعة صلته بعبوديته إلى مفهوم الطغيان، لأنه في لحظات الغرور تلك، حين يرى نفسه ممسكًا بزمام الطبيعة، يسكنه وهم الاستغناء عن الخالق تعالى فيقع في رذيلة الطغيان، والطغيان يقوده إلى الفساد والإفساد. والفساد والإفساد يتناقضان مع طبيعة الكون وطبيعة الحياة الكريمة التي يريدها الله تعالى للإنسان.

فهل يكون غريبًا بعد هذا، أن يتلازم تكليف الله تعالى للإنسان بتعمير الأرض، مع تحذيره من إفسادها وقد خلقها الله على هيئة صالحة: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾(الأعراف:٥٦).

بل هل يكون غريبًا أن يفتتح الله وحيه للإنسان بأن يرسم له خطوات المنهج الذي يحقق به الخلافة في الأرض، ويحذره من المرض الذي قد ينأى به بعيدًا عن وظيفته الوجودية، وينبهه إلى مصيره وعودته إلى خالقه؟

لا، لم يكن ذلك غريبًا، ولن يكون، فالقرآن أساسًا نزل منهجًا للإنسان، ومن مقتضيات المنهج أن يرسم الخطوات ويحدد المطلوب بدقة.

فكان أول ما نزل سورة "العلق"، بها ابتدأ الله خطابه للإنسان في مرحلة نضجه المتوافقة مع الوحي الخاتم، فجاء أول خطاب في آخر حلقات الوحي مرتبطًا مع أول خطاب أُعلن فيه عن إرادة الله في إيجاد هذا المخلوق الجديد. فآدم عليه السلام الخليفة المعلن عنه في بداية الخلق، تقلب أبناؤه في مراحل تاريخ الإنسانية رقيًّا وتكاملاً في مفهوم آدميتهم التي تؤهلهم لحقيقة الخلافة التي وسم بها أبوهم في بداية قصة حياتهم. فكان لزامًا أن يأتي الوحي الخاتم منسجمًا مع هذا الرقي الذي بلغه الإنسان.

فكانت آيات "العلق" فاتحة للخطاب الإلهي الأخير للإنسان: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥).

إنها القراءة، مفتاح كل رقي إنساني شريطة أن تكون قراءة باسم الرب الذي خلق، أي تكون قراءة في نطاق القيم التي تحفظ الإنسان من التيه والضياع إن هو "قرأ" بعيدًا عن الخالق سبحانه، لأنه بذلك سيعمر الأرض وينسى ربه، فتكون النتيجة الخراب بدل العمران، والضلال بدل الهداية، بل وانحطاط الإنسان عن أفق الإنسانية المطلوب تحصيلها وفق الكرامة التي منحها له الله تعالى، فتتحول ثمرات ذلك العمران الظاهري إلى أدواء قاتلة، تدفع الإنسان كلما انغمس فيها مستهلَكًا إلى مزيد من الاغتراب عن ذاته... كلما امتلأت حياته بالأشياء ازداد فراغها من المعنى، وفي أحوال الحضارة الغربية الآن خير شاهد على هذه الحقيقة.

فالقراءة باسم الله إذن هي الضامن لأن يستقيم الإنسان على المنهاج الحق، ليكون بحق خليفة عن الله في أرضه، يصلحها ولا يفسدها، يعمرها دون أن يضيع ذاته.

وفي الآيات أيضًا، إشارة إلى حقيقة لا تقل أهمية عن الحقيقة الأولى، هي أن القراءة باسم الله، تفتح أمام الإنسان باب كرم الله الواسع، فيعلمه ما لم يعلم، لأنه

hiramagazine.com

سبحانه هو الأكرم، وقد تجلت أكرميته زيادة على خلق الإنسان، بأن علّمه بالقلم، وعلّمه ما لم يعلم.

وشتان بين من ينطلق في آفاق الكون يقرأ باسم ربه، ومن ينطلق فيها يقرأ وهو غافل عن خالقه، يسائل المادة ولكنه لا يسأل عن مصيره ولا عن معنى الحياة التي يحياها يقرأ، وقد يكتشف أسرار الكون وسننه التي أودعها الله فيه، وقد يستغلها ويطوعها، ولكن منتهى علمه وقراءته يقف به عند حدود الظاهر لا يكاد يتجاوزه. وأصحاب هذه القراءة هم الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الروم:٧).

إذن فالإنسان خوطب بأن "يقرأ" ليتمكن من استيعاب منهاج الخلافة، هذا هو المنطلق، وهذه هي القاعدة التي بُنيت عليها الشريعة؛ الشريعة -كما قلنا- في مقاصدها وتفاصيلها... أن يكون الإنسان وقد هيئت له الأسباب الذاتية (ما ركب فيه من مواهب)، والموضوعية (ما سُخر له من موجودات)، قادرًا على أن يسلك عمليًّا ما يجعله قريبًا من الصلاح والإصلاح، بعيدًا عن الفساد والإفساد... ويتسع الصلاح المطلوب تحصيله ليشمل حياته في الدنيا والآخرة، ويتسع الفساد المطلوب البعد عنه ليشمل حياته أيضًا في الدنيا والآخرة.

لهذا، عندما بُحث عن المقصد العام من الشريعة الإسلامية التي هي خطاب الله للإنسان، وُجد أنه يتلخص في مراعاة مصالح الإنسان في العاجل والآجل. وإنما تكون مصالحه مرعية بتشريع ما يحفظ هذه المصالح الإنسانية بمستوياتها الثلاثة: ضرورية وحاجيَّة وتحسينية، وعلى هذه المصالح الثلاث تقوم الحضارة. إذ بالضروريات يتحقق للإنسان المستوى الأساس من متطلبات الحياة اللائقة به كإنسان.

ثم تأتي الحاجيَّات لتضيف إليه ما يجعل الحياة -وقد تحققت أساسياتها- بعيدة عن الحرج والضيق، اللذين إن لم يعودا على الحياة بالإزالة، فإنهما يعطلان حركتها ويعيقان تقدمها.

ثم تأتي التحسينيات في المقام الثالث لتضفي على الحياة -بعد أن استكملت أساسياتها ونأينا بها عن

الإسلام في مقاصده الكبرى أو عند المقاصد الجزئية المرتبطة بتفاصيل أحكامه، ينطلق من نقطة واحدة، هي تكليف الإنسان بتحقيق الحياة اللائقة به ككائن مكرَّم، ولا يكون ذلك إلا بالتحقق، بوصف الخلافة في نطاق العبادة والعمارة.

حراء

الضيق والحرج- بُعدها الجمالي.

ونحن نرى تفاوت الأمم في درجات التحضر، حسب تفاوت سقفها ارتفاعًا و انخفاضًا وفق هذه المصالح الثلاث.

فرب أمة لا يزال الإنسان فيها يلهث من أجل الظفر ببعض الضروريات، وقد أخرج الحاجيات والتحسينيات من دائرة أحلامه، فضلاً عن دائرة تفكيره.

ورب أمة أخرى، يرى الإنسان فيها كل حديث عن ضروري أو حاجي أمرًا يثير التعجب، لأنه تجاوز هذه الأمور منذ أمد بعيد، وهو الآن يسبح في دائرة الجماليات.

من هنا، عندما جعل الإسلام هذه المصالح الثلاث مقصدًا أساسيًّا للشريعة، إنما كانت غايته أن ينقل الإنسان إلى سقف الحضارة الذي يستوعب أسياسيات الحياة وميسّراتها وجمالياتها... وهو ما تحقق في مرحلة ما من تاريخ المسلمين.

الرسول ﷺ وتجسيد الخطاب الحضاري

ولن نجد إذا نحن بحثنا في تاريخ المسلمين مرحلة تجسد فيها الخطاب القرآني للإنسان بما هو خطاب حضاري، أو على الأقل يُعِدّ الإنسان ليكون بانيًا للحضارة كما تجسّد في المرحلة النبوية. ذلك أن هذه المرحلة هي مرحلة التأسيس الفعلي للإنسان الجديد، وفقا للرؤية الجديدة التي جاء بها الوحي الخاتم.

فقد نزل القرآن في بيئة بدوية بعيدة عن كل مظاهر التحضر التي عرفتها بلاد الروم أو بلاد الفرس، أو حتى الحضارات القديمة البائدة، فكان العربي لا يزال يعيش حياة قريبة في بساطتها إلى الطبيعة الساذجة في الأفكار والسلوك، وما يتبعهما من علاقات أسرية واجتماعية

hiramagazine.com

واقتصادية.

لم يكن تفكير الإنسان العربي -إن هو فكّر- يتجاوز سقف القبيلة وما تفرضه عليه من قيم، تجعله في أغلب الأحيان -إن لم نقل كلها- تابعًا لا يملك فكاكًا من الدوران في فلكها سلمًا وحربًا، حقًّا وباطلاً، حتى قال قائلهم:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد.

لم يكن للإنسان العربي قبل الإسلام كتاب يهديه في حياته، أو يكون له مرجعًا يشكّل ثقافته كما هو الحال عند اليهود والنصارى في جزيرة العرب، بل كان سابحًا مع تهويمات الشعراء، حكمته في ذلك فلتات تأتي عفو الخاطر لا عن رؤية وتفكير وتفلسف.

لم يكن به طموح إلى بناء كيان سياسي يجمع شتات القبائل المتناثرة، تناثر حبات الرمل في صحرائه القاحلة.

وكانت حياته كلها مصوغة وفق بداوته. إن في مظاهرها المادية أو بناها الاجتماعية والثقافية. وقد كانت "الخميرة" التي استخدمت بعد ذلك لتعطينا حضارة ناضجة، ظلت لقرون تقود العالم وتؤسس لما يأتي بعدها من تقدم إنساني.

وقد استطاع النبي ﷺ في رسالته أن يحول تلك الإمكانات في ظرف قصير إلى عطاء جديد، وينقل الإنسان العربي من بداوته إلى آفاق حضارية مدهشة، حتى عُدَّ ذلك بحقٍّ من أبرز مظاهر صدق نبوته ﷺ.

وما يشدنا في الفعل النبوي هنا، هو تهيئته ﷺ الإنسان العربي في ذلك الزمن ليكون إنسانًا آخر، يبني حضارة، ولا يكتفي بذلك، بل سيحمل الحضارة إلى غيره ويخرج من آفاق القبيلة، معرفيًا وجغرافيًا.

فكان الإعداد بارزًا في توجيهات الرسول ﷺ، حتى في المسائل البسيطة التي عادة ما يتعامل معها الناس على أنها توجيهات أخلاقية، أو آداب تستهدف تعديل السلوك الفردي، كتلك التي تناولت آداب الأكل واللباس والنظافة والحديث والطريق. وكان ذلك الإعداد ذا بُعدين، أحدهما "معرفي" والآخر "سلوكي".

وفي البُعد المعرفي تبرز المسائل التالية:

التنويه بالعقل والاعتداد بالعلم.

التنويه بالتعلم واكتساب أدواته.

الاحتكام إلى العقلية العلمية والبعد عن العقلية الخرافية.

التمييز معرفيًا بين مجالات الوحي ومجالات العقل.

وفي المجال السلوكي تبرز مسائل الآداب التي أشرنا إليها ففضلاً عن الواجبات في العبادات وغيرها، وما تحمله للإنسان من سلوكيات حضارية، تبرز آداب الأكل والشرب والنظافة واللباس، واتخاذ الزينة، والتعامل مع البيئة نباتًا وحيوانًا... إلخ.

ويمكن أن نورد عن كل واحدة من هذه المسائل عشرات الأحاديث والمواقف من سيرة المصطفى ﷺ، خصوصًا إذا وسّعنا دائرة النظر، وحررنا تلك النصوص من القراءة الفقهية الضيقة التي تُعنى فقط بالبحث عن الحكم الفقهي بالمفهوم الخاص، لنقرأها قراءة تستخرج البعد الحضاري أو الإعداد له فيها.

فكل هذه المسائل معرفية أو سلوكية، جاءت في السنة تأكيدًا أو شرحًا لما ورد في القرآن الكريم.

وهي إن تأملناها من زاوية الإعداد الحضاري، نجدها كلها تجسيدًا للخطاب القرآني الذي يريد من خلاله الله تعالى بناء إنسان جديد بإمكانه أن يبني حضارة، وأن يحمل حضارة للآخر مهما كان هذا الآخر مختلفًا عنه عقيدة وعرقًا ولغة وجغرافية.

وإذا شئنا أن نختم كلامنا بفكرة جامعة فإننا نقول: إن حديث الإسلام عن الإنسان يبرزه مخلوقًا مكرّمًا مؤهلاً لصناعة الحضارة.

وحديث الإسلام عن الإنسان، يدعوه إلى أن يلتفت إلى مؤهلاته ووظيفته كي يبني الحضارة.

فجاءت أحكام الإسلام منسجمة مع المكانة المعطاة للإنسان من جهة، ومع الوظيفة التي كلف بها من جهة أخرى، وأسهمت في مقاصدها الكبرى أو حتى عند مقاصدها الجزئية في إحداث التفاعل الذي صنع إنسان الحضارة الإسلامية. ■

(*) كاتب وباحث جزائري.

hiramagazine.com

د. يعرب قحطان الدُّوري*

إنجازات المسلمين في الفلك والعلوم الطبيعية

ازدهرت الحضارة الإسلامية وأضاء الكونَ نورُها بإسهامات العلماء المسلمين في مجالات عدة؛ كعلم الفلك الذي كان لعلماء المسلمين فيه الباعُ الأكبر، حيث أدخلوا كثيرًا من التحسينات على نظام بطليموس في مجال دائرة البروج ومتوسط حركة الكواكب، فقدموا هذه النظرية الفلكية بشكل جديد ودقيق. كما كان لهم الفضل في إنشاء المراصد في وقت مبكر، مما أسهم في الوصول إلى حقائق علمية جديدة، إضافة إلى إنجازات العلماء المسلمين في العلوم الطبيعية كالرياضيات، إذ كان لهم الإسهام المباشر في تطوير استعمال الأرقام. كذلك إسهامات الخوارزمي واضحة في علم الجبر الذي جعله مستقلاً عن علم الحساب، وأعمال عمر الخيام في فك المقدار الجبري ذي الحدين، بالإضافة إلى أعمال هامة قدمها علماء آخرون تشهد عليها المخطوطات الموجودة في متاحف أوروبا، مثل أعمال الخوارزمي والبيروني وغيرهم. أما الكيمياء فكان لهم من خلال أعمال جابر بن حيان الذي يعتبر أول من أسس علم الكيمياء، كتطويره طرق التبخر والتصفية والانصهار والتقطير والتبلور. أما الفيزياء فشهدت إسهامات واضحة في حفظ التراث اليوناني في الفيزياء وترجمته إلى العربية

وشرحه وتهذيبه وإيضاحه، كابن الهيثم الذي ألف في البصريات والضوء، ومسائل مراكز الأثقال وصنع الميزان وغيرها. كل هذا أسهم بنهضة أوروبا الحضارية بالثروة التي خلفتها الحضارة العربية الإسلامية.

المسلمون في علم الفلك

يعتبر علم التنجيم بداية علم الفلك عند العرب تأثّرًا بالحضارات القديمة على الرغم من رفض الإسلام التنجيم. وإذا كان العباسيون قد عُرف عنهم عنايتهم بتطوير علم الفلك، فإن الأصول التي استندوا إليها كانت تعود إلى بعض الترجمات التي ظهرت خلال العصر الأموي. فلقد ارتبط اهتمام المسلمين بعلم الفلك بالترجمة -وبخاصة ما ترجم عن اليونانية والهندية- لا سيما شروحات بطليموس ذات الأصول الثابتة والواضحة، وتمكنوا من إدخال كثير من التحسينات على هذا النظام في مجال دائرة البروج ومتوسط حركة الكواكب السيارة ودراسة الاعتداليين، وقيض لهم أن يقدموا دراسات دقيقة ووافية في هذا المجال من خلال الاستناد إلى الحسابات الرياضية، حتى ليُمكن القول إن المسلمين قدّموا نظريات بطليموس الفلكية بشكل جديد ودقيق. بَنى الأمويون مرصدًا في دمشق عام ٨٢٩هـ، واعتبره بعض الدارسين أول مرصد في الإسلام، وأنشأ الفاطميون المرصد الحاكمي على جبل المقطم بالقاهرة، إذ أسهمت هذه المراصد في الوصول إلى حقائق علمية جديدة، ساعدت في عهد المنصور على قياس الدرجة الأرضية لتحديد حجم الأرض ومحيطها على أساس أن الأرض دائرية الشكل.

واهتم المسلمون بأدوات الرصد ومنها الإسطرلاب، وهي كلمة يونانية الأصل معناها قياس النجوم، وأول من طور الإسطرلاب عند المسلمين هو إبراهيم بن حبيب الفزاري (القرن ٢هـ) ومن خلال كتابه "العمل بالإسطرلاب" يمكن تعرُّف طريق صنعه. والإسطرلاب أنواع، منها: المسطح أو ذو الصفائح، وهو أداة من المعدن على صورة قرص يتراوح قطره من ١٠ إلى ٢٠ سم، وله عروة اسمها "الحبس" متصلة بحلقة أو علاقة تصلح في تعليق الأداة بحيث تكون رأسية الوضع. وله استعمالات عديدة نذكر منها:

- تحديد أوقات الصلاة وتعيين اتجاه القبلة.
- مسح الأراضي كتعيين المواقع واستخراج الارتفاعات وعمق الآبار.
- أخذ ارتفاع الكواكب، وإيجاد محيط الكرة الأرضية، ومعرفة درجات الطول والعرض.
- حساب الشهور والتواريخ.

من أشهر العلماء الذين برعوا في هذا المجال نجد:

الطوسي (٥٩١-٦٦٣هـ) وهو من الذين بَرعوا في البحث والابتكار، وكان له شأن كبير في الفلك والرياضيات، أنشأ مرصدًا عظيمًا في "مراغة" كان يشتمل على آلات كثيرة بعضها لم يكن معروفًا عند الفلكيين في زمانه، وقد جمع فيه جماعة من كبار الحكماء وأصحاب العقول النيّرة من الأنحاء كافة، ليقوموا بالرصد والبحث في مسائل علوم الفلك والنجوم. وللطوسي الفضل في ابتكار الإسطرلاب الخطي. اتسم أسلوبه بالتعقيد، مما جعل نتاجه الفكري حكرًا على الخاصة من الباحثين والمشتغلين في مجال الفلك.

البيروني (٣٦٣-٤٣٨هـ) ترك ما يقارب مئة وثمانين كتابًا نشر هو مئة وثلاثة منها، أما الباقي فنشره أصدقاؤه بعد وفاته. وقد شملت مؤلفاته حقول التاريخ والجغرافيا والطب، والصيدلة والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفيزياء، وعلوم في الظواهر الجوية والآلات العلمية والمذنبات، من مؤلفاته كتاب "التفهيم لأوائل صناعة التنجيم"، وكتاب "التطبيق إلى تحقيق حركة الشمس"، وكتاب "رؤية الأهلة"، وكتاب "التطبيق إلى تحقيق منار القمر"، وكتاب "العمل بالإسطرلاب".

المسلمون في العلوم الطبيعية

اجتهد علماء المسلمين من خلال البحث والتجربة والانفتاح على معارف الحضارات الأخرى (كالفرس والهند واليونان) في إثراء ما تحويه هذه العلوم من نظريات واكتشافات وقوانين عديدة.

١- الرياضيات

كان للعلماء المسلمين الإسهام المباشر في مجال الرياضيات بتطوير استعمال الأرقام، حيث تم

hiramagazine.com

استخدامها الأول في الأقطار المشرقية وصار يطلق عليها الأرقام الهندية، بينما عرفت الأرقام الغبارية في أقطار المغرب العربي والأندلس، ويعود الفضل الأول إلى العرب في نقل الأرقام الغبارية إلى أوروبا عن طريق انتقال طلبة العلم إلى الأندلس، حتى صارت تعرف في أوروبا بالأرقام العربية. ومن المتعارف عليه عند أهل الرياضيات دور قيمة الصفر في تسهيل العمليات الحسابية بعد أن كان يعد فراغًا حسابيًا عند الهنود، لكن العرب بشكل علمي، استنبطوا البديل المناسب الذي أضحى استخدامه واسع الآفاق، ومنهم العالم الفذ محمد بن موسى الخوارزمي واضِع أصول علم الجبر الذي جعله مستقلاً عن الحساب، ومن إسهاماته:

هو أول من استعمل كلمة الجبر للعلم المعروف بهذا الاسم، وعنه أخذ الأوربيون هذه الكلمة "Algebra".

- تقسيم الأعداد إلى ثلاثة أنواع جذر أي (س) ومآل الجذر أي (س^{٢}) ومفرد وهو الخلي من "س".

- تقسيم المعادلات على أشكال وأنواع ستة وتوضيح حلولها، فقد عرف حلول معادلات الدرجة الأولى والدرجة الثانية المستخدمة الآن.

- تبيان كيفية ضرب الجذور بعضها في بعض، منفردة أو مع عدد آخر.

- البرهنة على نظرية فيثاغورس حول المثلث القائم.

وقد تعددت اهتمامات المعرفة لدى العلماء المسلمين ومن أهم ما قدموه:

- إنهاء العالِم أبو كامل شجاع الذي عاش في القرن التاسع الميلادي، العمل الذي بدأه ديوفانتوس في مجال المعادلات ذات المجهولات الخمسة.

- نجاح عمر الخيام في فك المقدار الجبري ذي الحدين المرفوع إلى أ س٢، أو ٣، أو ٤، أو... أو ن، كما حل كثيرًا من المعادلات ذات الدرجة الثانية، التي هي على صيغة: أ س٢ + ب س = هـ.

- تسهيل العمليات الرياضية التي مهدت لظهور اللوغاريتم من طرف العالم ابن حمزة المغربي رغم إدعاء مؤرخي العلوم في الغرب بأن هذا الاكتشاف يعود إلى العالم الرياضي "نابيير".

اجتهد علماء المسلمين من خلال البحث والتجربة والانفتاح على معارف الحضارات الأخرى (كالفرس والهند واليونان) في إثراء ما تحويه هذه العلوم من نظريات واكتشافات وقوانين عديدة.

حراء

٢- الكيمياء

يعود الفضل إلى العلماء المسلمين في تنظيم أبحاث الكيمياء ونقلها من التنظير إلى التجريب وإبعادها عن دائرة السحر والشعوذة، بفعل جملة من التفاعلات الكيميائية مثل التقطير والتصعيد والتذويب. إن الدراسات المكثفة التي أجراها العلماء المسلمون جعلتهم يعمدون إلى تقسيم المواد إلى أربعة أقسام رئيسية: المعدنية والنباتية والحيوانية والمشتقة. ويعتبر العالم المسلم جابر بن حيان (ت ٢٠٠هـ) أول من أسس المنهج العلمي الصحيح والدقيق لعلم الكيمياء العربي، وتبرز أهميته في نقل علم الكيمياء وفرزها عن السيمياء، ومن أهم أعمال جابر بن حيان في مجال الكيمياء نجد:

- تحضير مركبات حامض الكبريتيك من الزاج الأزرق ودعاه بزيت الزاج.

- اكتشاف الصودا الكاوية وتحضير حامض النيتريك والهيدروكلوريك.

- إدخال تحسينات على طرق التبخير والتصفية والانصهار والتقطير والتبلور كما جاء في كتابه "الخواص الكبير" في ستة أجزاء. كما يعد خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٨٥هـ) من أبرز البادئين في الاهتمام بعلم الكيمياء، ويقال إنه أول من تكلم في صيغة الكيمياء، لكن ليس بالشكل الحديث الذي تناوله جابر بن حيان.

٣- الفيزياء

إذا كان لعلماء اليونان الفضل الأول في وضع المبادئ الأولية لعلم الفيزياء، فإن أبناء الحضارة الإسلامية كان لهم الفضل في ترجمته إلى العربية وشرحه وتهذيبه وإيضاحه، وكذلك أضافوا إليه زيادات هامة وابتكارات أصلية بمنهج علمي سليم. ويعترف "ويدمان" بهذه الحقيقة التاريخية الناصعة فيقول: "إن العرب أخذوا

hiramagazine.com

بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيدًا وطبقوها على حالات كثيرة مختلفة، ثم أنشؤوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثًا مبتكرة، فهم بذلك قد أسدوا إلى العلم خدمات لا تقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن وفاراداي ورونتجن وغيرهم.

ومن أعلام الفيزياء نجد ابن الهيثم (ت ٤٣٠هـ): لقب ببطليموس الثاني، وكان إلى جانب أفذاذ آخرين كالبيروني، وابن سينا، وهو الذي استحدث آراء من الفكر العلمي، ومن أهم مؤلفاته:

- له في البصريات ما يقرب من أربعة وعشرين موضوعًا بين كتاب ورسالة ومقالة.
- كتاب المناظر الذي يتضمن آراء مبتكرة جزئية في علم الضوء، وهو في سبعة أجزاء، وقد ظل المرجع الأساس لهذا العلم حتى القرن السابع عشر الميلادي بعد ترجمته إلى اللاتينية.
- مقالات في المرايا المحرقة بالدوائر والمرايا المحرقة بالقطوع والكرة المحرقة.

٤- توزيع العلماء المسلمين في التخصصات العلمية

من خلال إحصائية واضحة، استطعنا معرفة عدد العلماء المسلمين نسبيًّا في الفلك والعلوم الطبيعية للفترة بين القرنين الأول والتاسع الهجريين، كما هو مبين في المخطط.

ونستدل بذلك على كثرة الفلكيين والرياضيين المسلمين في الحضارة الإسلامية العربية، وهذا يدل على استمرار هذين العلمين وتطورهما، ويرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب رئيسية:

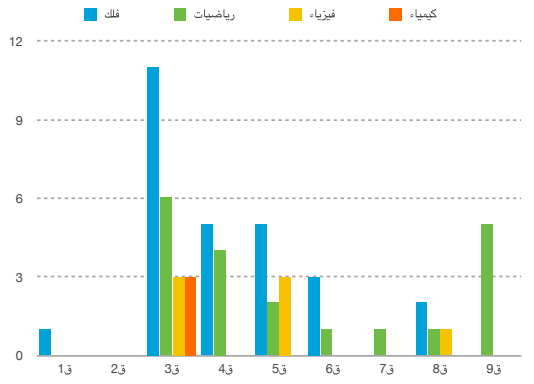

١- توافر الجو المناسب لعمل هؤلاء العلماء، من رعاية الحكام أو الخلفاء لهم وإلى استقرار الحياة السياسية.

٢- عمل هؤلاء العلماء بشكل جماعي، مما ساعد في انتشار هذين العلمين وتوارثهما.

٣- حاجة المجتمع المسلم إلى الفلك والرياضيات كأدوات لحل المشكلات السائدة؛ مثل المواريث، ورصد أهلة الشهور القمرية.

أما الفيزياء والكيمياء، فعدد العلماء كان محدودًا ويرجع ذلك إلى:

١- عامل خارجي يتمثل في الظروف المحيطة بالعالم كعدم الاستقرار وعدم توافر الإمكانيات.

٢- عامل ذاتي يتمثل في العمل الفردي، فلم يورَّث هذا العلم إلى غيره وبالطبع لم يتطور.

الاستنتاج

- توارث الحضارات يسهم في ازدهار العلوم وتطورها.
- يعتبر الإسلام من أهم المؤثرات التي أسهمت في ازدهار الحضارة الإسلامية العربية.
- ظهرت إبداعات المسلمين وابتكاراتهم في شتى العلوم.
- لِنجاح مشاريع البحوث العلمية، لابد لها من التكفل المعنوي والمادي، وهذا ما نلمسه من خلال اهتمام الحكام أو الخلفاء المسلمين بالعلماء والتكفل بأبحاثهم.
- تعتبر الترجمة من وإلى العربية حلقة مهمة في تطور العلوم وتناقلها.
- العمل الجماعي في البحوث يسهم في حفظها وتناقلها.
- وجوب إنشاء فرق بحثية تهتم بإبراز تراثنا العلمي وإخراجه إلى النور.

(*) أستاذ مشارك في جامعة برليس / ماليزيا.

hiramagazine.com

د. العطري بن عزوز*

حضارة الإيمان ومدنية العلم

تعد الحضارة من أكثر المفاهيم التي ثار حولها الجدل بشأن تعريفها وبيان معناها وتحديد مجال استعمالها ومداها، لتعدد الآراء واختلاف وجهات النظر في توضيح مصطلحها.

فعرّفها ابن خلدون بأنها "تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله"[1].

وعرّفها "ول ديورانت" (Will Durant) مؤلف "قصة الحضارة" بقوله: "الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلُقية، ومتابعة العلوم والفنون. وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمُضي في طريقه إلى فهم الحياة

الحضارة لابد أن يتحقق فيها التوازن بين الحياة الروحية والحياة المادية، وهما طرفي المعادلة في معنى الحضارة، ولا يمكن أن يتحقق هذا إلا في المجتمع المسلم الذي يملك عقيدة هي أسمى العقائد، وهي الأساس الرئيسي للحضارة بمفهومها الحقيقي.

وازدهارها"[٢].

وعند المفكر مالك بن نبي أن الحضارة: فعل تركيبي قوامه "الإنسان، والتراب، والزمن"، فالإنسان باعتباره كائنًا اجتماعيًّا، والتراب باعتباره ضرورة فنية معينة، والزمن بإدماجه ضمن العمليات الاقتصادية والصناعية والاجتماعية، ومن هذه العناصر الثلاثة تتحقق الحضارة عند ابن نبي، فيعتقد أن الحضارة هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يتقدم.

ويرى سيد قطب أن الإسلام هو الحضارة، ولا يمكن أن يطلق على أي جهد مرتبط بغير منهج الإسلام مصطلح الحضارة.

وضمن هذه المفاهيم تبدو أفكار كل من ابن خلدون، ومالك بن نبي، وديورانت، وسيد قطب، متقاربة في فكرة هامة هي أساس الحضارة، وهي الإيمان وضرورة توافر العقيدة التي تحفز على بناء الحضارة بناءً حصينًا ورصينًا، يقف في وجه الهزات العنيفة التي قد يتعرض لها المجتمع المتحضر، وتتباعد أفكارهم في ماهية الحضارة وعواملها.

والفرق بين المدنيّة والحضارة أن المدنية تتعلق بالجانب المادي في الإنسان، وهي الأشكال المادية المحسوسة، مثل اختراع القطار والطائرة والحاسوب والسيارة وغيرها. فالمدنية ليست خاصه بأمة معيّنة، فاليهودي والمسلم والنصراني وغيرهم، كلهم يحتاجون إلى المخترعات والعلوم الطبيعية. ولم يحرّم الإسلام أخذ هذه العلوم من أي مصدر كان، لأن العلوم صنعت بمجهود كل البشر من السابقين والمحدثين من العرب وغير العرب. أما الحضارة فهي خاصة، فعندما نقول الحضارة الإسلامية، فهي مبنية على مبادئ الإسلام وأركانه وعقيدته، ولا يمكن أن يشترك مع الآخر في هذه المبادئ التي تخصه، فالحضارة خاصة والمدنية عامة.

ومن المدارك الخاطئة في تاريخ الحضارة ما يزعمه نفر من الناس من أن فلانًا أول من صنع كذا، وأن فلانًا آخر أول من اخترع الشيء الفلاني إلى غير ذلك. إن الحضارات والثقافات تطوُّر ابتداع يقع عليه فلان أو فلان. كل مفكر يقتدي بمفكر آخر سابق على زمنه، وكل مخترع هو في الحقيقة شخص يزيد في آلة شيئًا جديدًا. فالطائرة تطورت من السيارة، والسيارة من الناقلة ذات العجلات، والفضل يرجع إلى ذلك الإنسان الذي خطر له في ساعة من ظلمات التاريخ في بلاد ما بين النهرين، أن يقطع من جذع شجرة شبه دولاب يدحرج عليه أحمالاً احتاج إلى نقلها من مكان إلى آخر[٣].

فالمدنية الناتجة عن العلم يجوز أخذها، كعلوم الفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة والرياضيات والهندسة والفلك والحاسوب لعموم الأدلة التي أمرت بالعلم، وكذلك المدنية الناتجة عن الصناعة، كوسائل الاتصال ووسائل المواصلات والأجهزة الكهربائية وصناعة الأسلحة... فقد بعث الرسول ﷺ اثنين من الصحابة ﷺ إلى اليمن ليتعلما صناعة السيوف، كما كان عليه الصلاة والسلام يستخدم الدنانير والدراهم الفارسية والرومانية، وبقي المسلمون على هذا الحال حتى ضرب عبد الملك بن مروان دنانير كتب فيها "قل هو الله أحد" وفي الوجه الآخر "لا إله إلا الله" وطوقه بطوق فضة وكتب فيه "ضُرب بمدينة كذا" وكتب خارج الطوق "محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق"[٤]. كما يباح أخذ المدنية الناتجة عن الحاجة كالملابس، فملابس الرجال أو ملابس المرأة داخل بيتها تعتمد على الحاجة، فالرجال في السعودية والخليج يحتاجون إلى لبس الدشداس لارتفاع درجة الحرارة هناك، بينما لا يستطيع المسلم الأوروبي أو الأمريكي في بلاد الصقيع والضباب إلا أن يلبس البنطال لتدني درجات الحرارة هناك، ولهذا لم يحدد الإسلام للرجال لباسًا معينًا اللهم إلا اشتراط ستر العورة، والمرأة كذلك لم يحدد لها الإسلام شكل اللباس الذي تلبسه، ولكنه وضع شروطًا له كأن يكون ساترًا للعورة، وأن يكون فضفاضًا لا يصف ولا يشف ساترًا لكل الجسم عدا الوجه والكفين خارج البيت[٥].

أما المدنية الناتجة عن الحضارة غير الإسلامية فينبغي عدم أخذ تشريعاتها وقوانينها، وقد غضب الرسول ﷺ عندما رأى عمر بن الخطاب ﷺ يقرأ في

hiramagazine.com

التوراة وقال له "أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًّا، ما وسعه إلا أن يتبعني" (رواه الإمام أحمد)، لهذا اقتصر المسلمون في تشريعاتهم وقوانينهم على الشريعة الإسلامية. وعلى الرغم من أنهم ترجموا الكتب الأجنبية إلى العربية، فإنهم لم يترجموا نصًّا واحدًا من القانون الروماني رغم شهرته في ذلك التاريخ، لا للعمل ولا العلم به.

فما يسمى بالحضارة الغربية هو في الواقع مدنية، لأنها اهتمت بالجانب المادي في الإنسان وغفلت عن الجانب الروحي، واختلت فيها موازين القيم، فحضرت الوسيلة وغابت الغاية. فالتطور والتقدم هو وسيلة لتوحيد الله تعالى وعبادته حق العبادة، وهي الغاية من وجود الإنسان وبناء الحضارة على الأرض، وقد فشلت هذه المدنية في تنظيم حياة المجتمع البشري المعاصر، كما يشهد علماء الغرب أنفسهم، وقد تحدّث "ألكسيس كاريل" في كتابه "الإنسان ذلك المجهول" عن هذه الوضعية بقوله "إن الحضارة لم تفلح في خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلي، وترجع القيمة العقلية والروحية المنخفضة لأغلب بني الإنسان إلى حد كبير، إلى النقائص الموجودة في جوهم السيكولوجي، إذ إن تفوق المادة ومبادئ دين الصناعة حطمت الثقافة والجمال والأخلاق".

فرغم التطور الهائل في العلوم والتكنولوجيا والاختراعات التي يعتبرها البعض مقومات الحضارة، نرى الإنسان يعيش حياة قلقة بشكل عام، ويقف علماء النفس والاجتماع والأطباء حيارى تجاه ازدياد أعداد المصابين بالأمراض النفسية والعصبية، وكلما تيسرت وسائل الرفاهية للإنسان، كثرت حوادث الانتحار في الشعوب التي تعتبر متحضرة كما تدل على الإحصائيات. إذن فما الجواب للسؤال الذي يطرح نفسه على الإخصائيين من علماء الاجتماع والفلاسفة والأطباء وغيرهم. إنهم لا يجدون جوابًا. الجواب يتمثل في تحديد مقومات الحضارة والسر الذي يكمن وراء سعادة الإنسان.

هنا نقول إن كل هذه الظواهر، ناشئة من طبيعة وفلسفة المدنية الغربية ذاتها، فالأساس الذي قامت عليه هذه المدنية أساس مادي بعيد عن البعد الروحي الذي هو روح الحضارة. فإذا كانت المجتمعات، تمثل فيها جمال البنية وجمال الطبيعة وجمال اللباس وجمال المدن وجمال البيت وجمال المرأة أيضًا، فإنها فقدت جمال الروح وجمال الذوق الفطري وجمال الخُلق.

فالحضارة لابد أن يتحقق فيها التوازن بين الحياة الروحية والحياة المادية، وهما طرفا المعادلة في معنى الحضارة، ولا يمكن أن يتحقق هذا إلا في المجتمع المسلم الذي يملك عقيدة هي أسمى العقائد، وهي الأساس الرئيسي للحضارة بمفهومها الحقيقي، لأنها عقيدة روحانية إيجابية بناءة، تنقل الإنسان من رُقي إلى رُقي، ومن كمال إلى كمال، ومن تخلف إلى تقدم، ومن جهل إلى علم. ونحن أقدر على التحكم في زِمام الحضارة في أي عصر من العصور، لأننا لن نتخذ من الوصول إلى الفضاء وسيلة للاستعلاء والزهو والتجسس على الآخرين، ولن نتخذ من الصواريخ عابرة القارات وسيلة لتهديد الأمم والشعوب ونهب خيراتها، ولن نتخذ من وسائل الإعلام وسيلة للتضليل والسيطرة على الشعوب. فحضارتنا تصدِّر السعادة للشعوب والخير والرحمة والأخوة والتعايش السلمي، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(ال عمران:١١٠). ■

(*) باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز / الجزائر.

الهوامش

(١) المقدمة، ابن خلدون، دار الكتاب، بيروت ٢٠٠٥، ص:١٦٩.

(٢) قصة الحضارة، وول ديورانت، ص:٣.

(٣) الحضارة الإنسانية، عمر فروخ، دار لبنان، بيروت ١٩٨٣، ط٣، ص:٨.

(٤) تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص:١٥٧.

(٥) مفاهيم النهضة الإسلامية، نجاح يوسف، دار الإسراء، الأردن ٢٠٠٤، ط١، ص:٢١٨.

hiramagazine.com

أديب إبراهيم الدباغ*

أبناء الخدمة

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ۞ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾(الفرقان:٦٣-٦٥).

قد لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن "رجال الخدمة" تعلّموا من "عباد الرحمن" ومن صفاتهم كما وردت في الآيات الكريمة الآنفة، حتى ليمكننا القول -دون مبالغة- إنهم امتداد لهم وانعكاس عنهم.

هونًا على الأرض تمشون.. مسالمون.. ملائكيّون.. ظهرَ الأرض لا تخدشون.. وترابَها لا تُوجعون.. وأحدًا من خلق الله لا تؤْذون.. وحتى الهوام والدّواب أنْ تطأها أقدامكم تحاذرون.. وإذا خاطبكم الجاهلون، سلامًا تقولون.. كنسائم الفجر تهبّون، والنِّيام تنبّهون.. لا تعنفون ولا تصخبون.. على سهام الغدر عصيون، وعن قوارص الكلام تصمون.. عن هويتكم لا تنسلخون.. بأنفسكم تسمون.. وبأخلاقكم تتعالون.. واعون غير ساهين.. متيقظون لا تنامون.. تعلون، أبدًا ولا تسفلون..!

حتى إذا بكم الأخطار حاقت، ووجودكم تهدَّد، ولبقائكم يرادُ له الفناء؛ تحرَّك قلقكم، وتصارخت أرواحكم، وتحافزت قواكم، وعن سواعدكم شمَّرْتم، وعلى الحفاظ على شرفكم تداعيتم.. فاجتمعتْ السواعد، وتشابكتْ الأيدي، وتساندت الأكتاف، وتزاحمت المناكب، وتدفقت النخوات، واشتدت العزائم، وقويت الإرادات، وتفتحت ميازيب العقول، واجتمعتْ المدارك، ووقفتم على الثغور، تحرسون لا تنون، وتجهدون ألاّ تؤتَون، من حيثُ لا تعلمون..!

وأنفسكم من الفناء والزوال تحصنون، ليس خوفًا

على أنفسكم فحسب، بل خوفًا على أمّتكم، هذه الأمة التي تشكلون فيها قوة دافعة إلى الأمام.. إنّهم روح الأمة الإبداعية، وعقلها المفكر.. فمن دونهم يخشى على الضمائر من الانحلال، وعلى العقول من الضياع، وعلى الأخلاقية العالية من التدهور والانحطاط.. لا أدري أين نجد العظمة الحقيقية في هذه الأمة إذا نحن شطبنا على وجودهم، وعملنا على انحلالهم وتفَكّكهم؟! فكيان هذه الأمة "روحي" سواء أردنا ذلك أم لم نرد، فهو واقع يكاد يفقأ كل عين لا تبصر هذه الحقيقة.. فهؤلاء أبناء الخدمة -رجالاً ونساءً وشبابًا وفتيانًا- انعكاس لهذا الكيان الروحي، وامتداد له، فإذا ما خلتْ الأمة من مرآة ينعكس عليها شيء من كيانها الأصيل اختفت ذاتها وضاعت هويتها، وذابت بين أمم الأرض.. فهذه "الخدمة" غدت اليوم قضية الأمة الأساس، وهي حريصة عليها حرصها على روحها، لأنها شيء انبثق من أعمق أعماق وجدانها، وهي تشكل بفكرها الرشيد عمودًا من أعمدة البناء الحضاري لهذا الوطن اليومَ وغدًا... إنها نبض الحقيقة المنساب صداه في قلب كل إنسان وفي قلب كل عالَم من عوالم الأكوان.. فأقصى طاقات الحياة الإيمانية يمكن أن نجد ما يدل عليها في أبنائها وهم يمارسون أبسط أعمالهم المهنية والحرفية.

إنّ دلائل تبدل روحي نلمحه في أبناء هذا الوطن بفضل جهود هؤلاء الأبناء.. إنهم روح جَوّال يُظِلُّ الناس في أسواقهم ومكاتبهم ومدارسهم وجامعاتهم، وفي كل مكان من أرض الوطن.. إنهم يعيشون للخلود، ويعملون في سبيل الخلود، فلا يمكن لكل شرور الأرض مجتمعة أن تحرفهم عن هدفهم، أو تمنعهم حقهم في العمل من أجل ذلك.

اذهبوا يا "أبناء الخدمة" حيثما شئتم وأنتم محاطون بالنور والحكمة والعقل والبصيرة، فأنتم القوة التي ستوطد أركان الحقيقة الكبرى على هذه الأرض، حيث تتلاقى تخوم الأفكار جميعًا ثم تتجاوز حدود المتناقضات لتتحد بعد ذلك في فكر واحد هو الطريق إلى الخلود وإلى الله تعالى. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

طارِقو الأبواب

يا لهبًا في الروح، يا طارقَ الأبواب، يا خارقَ الأسباب..!
متى يأتي النداء، وتُفَتَّحُ في وجوهنا الأبواب..؟
ومِن وراء الغيب نُنادَى: "هَلمّوا ادخلوا،
فقد أُذن لكم...
ففزتم بالقبول، وحظيتم بالمثول..!"
وفي الآذان تتساكب اللحون،
والأغاني العِذاب؛ فترقص القلوب،
على ألحان الخلود...

* * *

قصة

د. عبد الله بن صالح العريني*

زجاجة حليب

لفت نظري أن زجاجات الحليب التي تضعها شركة الحليب كل يوم عند باب جاري، بدأت تتكاثر لدرجة لافتة لنظر المارّة. شعرت بحيرة شديدة، لأن بقاء تلك الزجاجات ووجودها دائمًا أمام باب المنزل، يعني دعوة لأي لص من اللصوص لدخول المنزل مستغلاً غيبة صاحبه عنه.

مضت الأيام على خير، وستر الله المنزل، ولكن من ذا يضمن أنها لن تكون في عين أحد المجرمين فينتهزها فرصة ويسرق من البيت ما شاء؟! فقد غدت الفرصة سانحة أكثر من أي وقت سابق.

كنت أحاول أن أطرد مسألة التفكير في ما سيحدث لمنزل جاري، وما شأني أنا بالموضوع من أوله إلى آخره؟ والرجل لا يعرفني ولا أعرفه، وحتى لو سُرق منزله فلن يضرني هذا شيئًا أبدًا... ولكن سرعان ما أستبعد ذلك من ذهني، وأرى من واجبي أن أعمل شيئًا، فليكن ذلك الرجل شخصًا لا أعرفه، ولكنه على الأقل جاري. ثم إن أخذت هذه الزجاجات ووضعتُها عندي، لن أخسر شيئًا، فإن جاء وهي جيدة، استفاد منها، وإن جاء وهي منتهية الصلاحية، فلا ذنب لي في الموضوع.

ومضى نحو أسبوعين، وأنا آخذ زجاجات الحليب من أمام منزل جاري وأضعها عندي... ولكن عندما بدأت تتكدس في ثلاجة منزلي الصغيرة، أخذتُ أنتقي التي انتهت مدة صلاحيتها لكي يتسع المكان لغيرها. لقد تضايقت زوجتي وأبنائي بعض الشيء، إلا أنني شعرت أنه لابد من إكمال المشوار، فأخبرتهم الحقيقة التي لا مفر منها، وهي أنني جاد فعلاً في هذا العمل حتى أصل إلى ما أريد.

وحين عاد جاري إلى منزله ذهبت إليه وقصصت

عليه ما عملته بالكامل.. وأن زجاجات الحليب قد ملأت ثلاجتي... فضحك ضحكة صافية. ثم قال:

- ولماذا فعلتَ هذا حقيقة؟

- كما قلتُ لك؛ كنت خائفًا على منزلك من السرقة.

- هذا عمل عظيم أشكرك عليه.

كانت حادثة الزجاجات سببًا في كسر الحائط الجليدي بيني وبين جاري، إذ دعاني إلى منزله أكثر من مرة، وعرّفني إلى زوجته ماري قائلاً إنها راهبة في مدرسة القديس يوحنا.

شعرت بانقباض شديد في نفسي، لا أدري لماذا، ولكن هذا ما حدث... فأنا ما تعودت طيلة حياتي أن أكون وجها لوجه مع راهب أو راهبة، لم تكن بي رغبة في ذلك، ولم أضطر حتى جاء هذا اليوم... قالت بعد أن حيَّتْني ورحّبت بي:

- لقد فعلتَ خيرًا أيها الأخ العزيز.

- هذا واجبي... إن الجار له حق عندنا، لأن ديننا يأمرنا بذلك... يأمرنا أن نحترم الجار، ونتعاون معه، ونكف الأذى عنه، ونساعده بقدر ما نستطيع... لقد خشيت حقيقة من أن يدخل لص من اللصوص بيتكم ويسرق ما فيه. التفتت زوجته الراهبة إليه قائلة:

- إنها غلطتك يا سميث.

- دعينا من اللوم في مسألة انتهت دون مشكلة، لقد نسيت أن أطلب من الشركة أن تقف الاشتراك طيلة غيابنا، هذا كل ما في الأمر.

وحين توقف سيل الاتهامات المتبادلة بينهما، رحتُ أذكر ما أحفظه عن حب الجار والعناية به وإكرامه، مما حدث في عهد الرسول ﷺ والقرون الفاضلة الأولى، وطوال حديثي كنت أحس منهما إصغاء غير عادي شجعني على الاستمرار، فوجدتها فرصة أن أشرح لهما قول الرسول ﷺ: "واللهِ لا يؤمن، واللهِ لا يؤمن، واللهِ لا يؤمن"، قيل من يا رسول الله؟ قال: "من لا يأمن جاره بوائقه".

وختمت حديثي بقولي: وبعد هذا فما تصورتماهُ شيئًا مدهشًا، فإنه أمر عادي نمارسه بتلقائية وعفوية. أثار ذلك دهشة الزوجين وبخاصة ماري الراهبة التي صرختْ قائلة: أوه... هذا رائع... هذا غير عادي... لقد كنت أعتقد أن المسيحية وحدها هي دين المحبة.

قال سميث معقبًا: هذا جيد...

ثم نظر إلى ماري وإليّ وهو يقول:

-هل ستغضب ماري إذا طلبتُ من جارنا معلومات أكثر عن دينه الذي حدّثنا عنه؟ يبدو لي أن في تصوّرنا عن الإسلام خطأً.

قالت: بكل سرور، هذا يرجع إليك.

نظرتُ إلى تغير وجهها، وصعوبة هذا الأمر عليها، فحمدت الله تعالى على نعمة الإسلام، لأن تقبل عقيدة أخرى ليست أمرًا سهلاً على النفس. ووعدت بإحضار ما طلبه سميث وماري.

في اليوم التالي وفي طريق عودتي من الكلية إلى المنزل، مررت على مركز إسلامي وأحضرت عددًا من الكتب المبسطة للإسلام. كنت أعتقد أن لدى المركز مكتبة غنية بكتب التعريف بالإسلام والدعوة إليه، لكني حينما ذهبت وجدت أن أكثر الكتب قد نفد، بل إن نسخ ترجمات القرآن الكريم قد نفدت من المراكز الإسلامية والمساجد لكثرة الطلب عليها، فاستعرت من الكتب الخاصة بالمكتبة ووعدت بإعادتها على مسؤوليتي... قدّمتها لجاري وزوجته، وأعطيتهما رقم المركز إذا رغبا في معلومات أكثر.

بعد فترة، كان أحد الأصدقاء في المركز يتصل بي ويقول إن لدينا حفلةَ إسلامِ كلٍّ من سميث وماري جارَيْك اللذين حدثتَنا عنهما، ونريدك أن تساعدنا في إعداد الحفلة وتوفير ما نحتاج إليه، فأنت تعرف ظروف المركز. دمعت عيناي من الفرحة، شعرت بأطياف السعادة تحوم حولي، اعتقدت أنني محظوظ أن أكون سببًا في الدعوة إلى الله، رغم أني لم أبذل في ذلك شيئًا يُذكر، لقد قمت بأمر بسيط، بسيط جدًّا، انتهى بتوفيق الله إلى هذه الغاية النبيلة.

قلت له: سوف أتكفل أنا بكل شيء في هذه الحفلة، سوف أستأذن من الكلية ذلك اليوم، وسوف أعدّ لهما بنفسي حفلة مناسبة. ■

(*) عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

د. فؤاد البنا*

أفراح الأتراح

عندما تخرج الأنوار من أرحام الظلمات

تعاني أمتنا اليوم آلامًا كثيرة ومآتم عديدة، إذ تتكاثف في سمائها سحب الظلمات وتتضافر عليها الدياجي الحالكات، لتضيق الخناق على مساحات الضوء وتكسر قناديل النور ومصابيح الاستنارة.

ويصاحب هجوم الظلام عواصف من الإعلام الأهوج وأعاصير التحريض "الأعمى" وزوابع الإرجاف والتيئيس والإقناط التي تسعى لإطفاء شموع العقول وأشعة القلوب، بحيث يصبح أبناء الأمة قوالب دون قلوب، وأشباحًا دون أرواح، وبحيث يصيرون أعجاز نخل خاوية يفقدون كل قدرة على صناعة الحياة ولا يهتدون سبيلاً ولا يملكون أي فاعلية.

هذه الفتن العمياء المدعومة بمكر خارجي مسلح بكل الإمكانات القادرة على إسقاط سقف الأمة على رؤوس أبنائها، وهذا التصاعد الرهيب في هذا الاتجاه، ينبئ عن أن مرحلة الحمل قد اكتملت، وأن أوان الميلاد قد آن، وأن الكتلة الحرجة القادرة على صناعة التغيير قد أوشكت على الاكتمال، وأن هذه الآلام -من ثم- ما هي إلا آلام المخاض.

هذه الحقيقة يمكن أن يقرأها من يفتح كتب الهداية التي حض هذا الدين على قراءتها والاستفادة منها في كل نواحي العمارة، وفي شتى مراحل النهوض، وفي شتى مساحات الفكر، بما في ذلك هذه المساحة التي يقترن فيها المادي بالمعنوي، ويتعانق فيها عالما الغيب والشهادة.

إن كل كتب الهداية تقول بأن "الجمال" قد يتفجر من بطون "القبح" و أن عيون "الخير" قد تنبجس من صخور "الشر"، وهذا ما ستبرزه هذه المقالة في عناوينها الأربعة:

١- آيات كتاب الوحي

تتنزل آية القرآن من صاحب العلم الكامل ومالك القدرة المطلقة، لذلك فهي تحمل إضاءات تساعد المستضيء بها عبر مفاتيح التدبر على رؤية بعض المساحات في عالم ما وراء المادة، حيث تتلفع في كثير من الأحيان "المنح" بأثواب "المحن"، وتتنكر "النعم" في صور "النقم"، وتتخفى "الأنوار" في بطون "الظلمات"، وقد تأتي "العطايا" على أقدام "البلايا"، ويأتي "اليسر" على مطايا "العسر"، وتُقبل "الأفراح" على ظهور "الأتراح".

وإشارة إلى هذا المكر الإلهي بأعدائه، والنصر الخفي لأوليائه، ومن أجل التأهل لتنزل المدد الإلهي والعون السبحاني، والنصر الرباني، نجد القرآن يقول: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦)، ويقول: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(النساء:١٩).

وفي سورة النور أشار الله إلى إعصار الإفك الذي أراد به المنافقون واليهود إطفاء أنوار النبوة، وكان فتنة عظيمة فقال تعالى: ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(النور:١١).

ومن يتمعن في آيات الفرقان، فسيجد دروسًا عميقة وكثيرة في هذا السياق. فإن الله "يخرج الحي من الميت"، ويخرج اللبن -وهو من أهم الأغذية لحياة الإنسان- من بين فرث ودم، ويخرج العسل من بطن حشرة حقيرة وصغيرة مع أن فيه شفاء للناس، وضمّن هذا الدرس في سورة سميت باسم هذه الحشرة وهي "النحل".

وأشار القرآن إلى أن مبدأ الإنسان من نطفة حقيرة تخرج من مَبْوَلَي الرجل والمرأة، ويستقر في رحم المرأة إلى أن يخرج منه بعد تسعة أشهر من العيش في قرار مكين داخل هذا المكان المهين.

وذكر أن كليم الله موسى عليه السلام تربى في بيت عدو الله فرعون بل في حِجْره، مع أن الأول من أولي العزم من الرسل، أما الآخر فقد تفرد بزعم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾(القصص:٣٨)، ومقولة: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات:٢٤)، لذلك أخذه الله: ﴿نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾(النازعات:٢٥).

إن العاقل يستطيع أن يستخرج من حفرة العثرة جوهرة العبرة، ويستغل الخطوب لتمحيص النفوس وتصفية القلوب، وقد تقوده الزلة إلى دخول بيت الذلة بين يدي ربه فيصلُح ويفلَح.

وأورد القرآن أن الرياح التي يراها الناس عذابًا ذاتُ فوائد جليلة على حياة الإنسان، ابتداء من تلقيح الشجر لكي تثمر، وتلقيح السحب لكي تمطر: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾(الحجر:٢٢).

ووصولاً إلى دور الرياح في تسيير جميع السفن الشراعية، وهذا واضح، والسفن البخارية التي تعتمد على الفحم الحجري أو النفط أو الغاز أو الطاقة النووية، فإن هذه الأنواع من الطاقة لا تحترق لتدير محركات هذه السفن، إلا عبر الأكسيجين الذي تتضمنه الريح كما يقول العلماء، وهذا ما أشارت إليه الآية القرآنية التي تقول: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(الشورى:٣٣).

ولأن آية القرآن تتجاور في ثناياها الفوائد المادية والمعنوية، فإن فاصلة الآية: ﴿لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، تشير إلى هذا المعنى الذي استدللنا عليه هنا، ففي ظل الصبر والشكر تتحول النقم إلى نعم، كما تتحول رياح السَّموم إلى وسائل لتسيير السفن التي تحمل الناس وتوصل المنافع إليهم.

٢- دلائل كتاب الكون

ومن يقرأ آيات الكون فسيجد دلائل لا حد لها تؤكد إمكانية توليد الشر للخير، ومجيء الهدايا على صور بلايا، وخروج المنافع من أكمام المضار.

ومن هذه الدلائل أن المياه تتفجر من بين الصخور الصماء، وتنبعث من بين أطباق التراب الصلد المتحجر، وأن الأمطار تتصبب من عيون الغيوم السود، وأن السماء لا تمطر إلا بعد أن تتلبد بالغيوم التي تحجب الشمس ثم تدمدم فتبرق وترعد، وبعد ذلك ينزل الغيث الهطال والماء المدرار.

أما الأرض فإنها لا تنبت إلا بعد أن تغرقها المياه،

hiramagazine.com

وتهزها وتحدث فيها تشققات: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(الحج:٥).

وتخرج تلك النباتات المنيرة التي تُعد كائنات حية في كثير من الوجوه، من بين طبقات الأرض الغبراء التي هي ميتة في الأصل.

ومن تلك الدلائل أن الأزهار الجميلة تخرج من بين الأشواك القبيحة، والربيع الزاهي بكل مشاهد الجمال لا يأتي إلا من رحم الشتاء المحفور بكثير من القبائح ومآتم الموت لمليارات الأزهار والأشجار والحشائش.

وفي دائرة النباتات، فإن النار التي تحرقها تكشف عن معادنها الأصيلة والنفيسة، فإن أغلى أنواع البخور والروائح الطيبة هو العود، قال الشاعر:

لولا اشتعال النار في ما جاورت

ما كان يُعرف طيب عَرْف العودِ

ومن الضروري أن يسبق الدخان عبير العود كما قال شاعر آخر، وهو يشير إلى هذا المخاض الجميل وهذه النسبية السننية:

تريد مهذَّبا لا عيب فيه

وهل عودٌ يفوح بلا دخان؟!

ومن المعلوم في هذا الكتاب الكوني الهائل، أن الفجر تسبقه دياجير حالكة، كأن خيوط الفجر تتسلل من بين أطباق الظلام الدامس.

وغالبًا ما يكون كسوف الشيء قرينة على نفاسته، كما أشار إلى ذلك الشاعر:

وفي السماء نجومٌ لا عداد لها

وليس يكسف إلا الشمسُ والقمرُ!

لكن الكسوف أو الخسوف ليسا أبديّين، بل هما مؤقتان ليعقبهما مزيد من التوهج والانبلاج.

وفي إطار التراب الميت ذي المنظر القبيح، فإنه يخفي تحته كثيرًا من المعادن الجميلة والجواهر النفيسة، والطاقات الحيوية لحياة الإنسان كالنفط والغاز والحديد والذهب الذي تستخرج مادته الأولية "التبر" من وسط أركمة "التراب".

أما النفط الأسود ذو الرائحة الخانقة والطعم القاتل والأثر الحارق، فإنه يدير عجلة الحياة، إذ يحرك سائر وسائل المواصلات، ويدير شتى ماكينات الصناعات، ويوقد الكهرباء التي تنير دروب الحياة وتحمل للإنسان عشرات الفوائد، ومن مواد النفط تشكل ما يسمى الصناعات البتروكيماوية، التي توفر للإنسان عشرات السلع التي تحتاج إليها حياة الترفّه الإنسانية.

وحول الأرض توجد سلسلة من الأخاديد التي يتراوح عمقها ما بين ٦٠ و١٥٠ كم كما يقول العلماء، ولأول وهلة تبدو كندوب تشوه وجه الأرض، لكن فوائدها المرتبطة بامتصاص درجة الحرارة الزائدة على حاجة الإنسان لا تقدر بثمن، ولولاها لظلت درجة حرارة الأرض في ارتفاع مع ما سيحدثه ذلك من تداعيات إلى أن تنفجر مثل القنبلة النووية.

أما البراكين التي تبدو كبثور في ناصية الأرض، ولا سيما في المناطق الاستوائية الجميلة بتربتها الخصبة وأمطارها الغزيرة، فإنها ليست شرًّا محضًا كما يظن بعض الناس، بل هي من أهم أسرار الحياة والجمال في هذه الأرض، إذ إنها مصدر ٧١٪ من الأمطار النازلة على الأرض كل عام، التي تأتي على شكل غازات تنبعث من باطن الأرض عبر فوهات البراكين، ثم في ظروف وأسباب يصنعها الله ﷻ تتحول إلى أمطار تحيي الأرض بعد موتها، وتحمل الحياة لكل الكائنات فيها.

٣- قرائن كتاب الكائنات

من يُلقِ نظرة على كتاب الكائنات، فسيجد هذه الحقيقة بارزة كالشمس في كبد السماء، إذ تتغطى النعم بأثواب النقم، وتتبرقع "المفاتن" بنقاب "الفتن"، وتتستر ثمار الكائنات اليانعة بأشواكها المؤلمة وتتسلح بسمومها الناقعة.

ومن المعلوم في هذا السياق، أنه من سم الأفاعي يستخرج ترياق الحياة، لذلك صارت الأفعى رمزًا للصيدلة والدواء.

ومن جلود الثعابين والتماسيح تصنع أرقى وأغلى الحقائب والأحذية، ومن فرو الدِّببة تصنع أثمن المعاطف النسائية، ومن بعض أنواع الغزال يُستخرج أرقى العطور الذكية وهو المسك.

وفي ذات الدائرة، فإن الحيوانات هي المصدر

hiramagazine.com

الأساسي لتجمل الإنسان، إذ يخرج الحرير من بطن دودة القز، وتصنع أفخم أنواع الصوف من بعض أنواع الأنعام.

وفي كثير من الأنعام والدواب نِعَم عظيمة تتخفى وراء ما يكرهه الإنسان منها، حتى ينطبق عليها قول الشاعر:

كم نعمةٍ لا يُستقل بشكرها
لله في طي المكاره كامنة

وما ينطبق في مجال الحياة المادية ينطبق أكثر في مجال الحياة المعنوية، حيث يفر الإنسان من كثير من المكروهات التي تخفي وراءها كثيرًا من المحبوبات، كما قال الشاعر:

رُبّ أمـــر تتـــقيه جر أمرًا ترتجيه
خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه

كأن المكروهات هي المظروف الذي يخفي داخله رسائل الله المتضمنة لما يحبه الإنسان، إذا أحسن استثمار الأسباب وقوّى توكله على الله كما قال أحد الشعراء:

ولكل حال مُعقِب ولربما
أجلى لك المكروه عمّا يُحمدُ

وهكذا فإن "المكاره" تبرز توَهج "المكارم"، وتصيّر المحن جسرًا للعبور إلى المنح، وهذا ما سنجعله مسك هذه المقالة.

٤- "المحن" جسر العبور إلى "المنح"

يؤكد التدبر في آيات القرآن، والتفكر في آيات الأكوان، والتبصّر في آيات الكائنات وعلى رأسها الإنسان، أن "المحن" في حياة الأفراد والكيانات، جسر للعبور إلى "المنح"، إذا أُحْسِن استثمارُها على الوجه الأمثل.

إن فقه الابتلاء يثبت أن "المنحة" تتسلل في كثير من الأحيان من بين براثن "المحنة"، و"النعمة" تخرج من رحم "النقمة"، و"المزايا" تتكوّن في بطون "الرزايا"، و"الآمال" تنشق من صخور "الآلام"، و"الأفراح" تتولد بين أكوام "الأتراح"، ويثبت أن أشجار العِبرات لا تطيب إلا بمياه "العَبرات" وأن "الأشواق" لا تضطرم إلا باضطراب "الأشواك".

وعلى هذا الأساس قد يكون الانكسار هو طريق الانتصار، وقد يكون الانفصال سببًا لدوام الاتصال، وقد تكون الوحدة سببًا للوُحدة، وقد يكون الاختلاف مقدمة للائتلاف.

وكما قال الشاعر العربي:

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلي الله بعضَ القوم بالنعم

وتشير فلسفة المحنة إلى أن المنع قد يصير منحًا، وأن العسر قد يصير يسرًا، وأن الداء قد يصبح دواء، وأن البُعد قد يصير قربًا، وقد يكون الغلق عين الفتح، والمرض عين العافية، والنقصان ذات الكفاية، والإساءة عين الإحسان.

وقد يصبح القدح مدحًا، والمحق بركةً، والضعف قوةً، والفقر غنًى، والدمار عمارًا، إذ إن العاقل يستطيع أن يستخرج من حفرة العثرة جوهرة العبرة، ويستغل الخطوب لتمحيص النفوس وتصفية القلوب، وقد تقوده الزَّلة إلى دخول بيت الذلة بين يدي ربه فيصلُح ويفلَح.

وقد ساعدنا على فهم ذلك الحكيمُ الفارسي "أزدشير" الذي قال: الشدة كُحلٌ ترى به ما لا تراه بالنعمة. ومن هنا يصبح الألم نعمة، إذ إنه ينبه صاحبه إلى وجود مشكلة، ويستفز فيه جهازه المناعي ويستنفر طاقات التحدي الكامنة فيه، مما يعني أن المحنة هي خير للمؤمن الحق.

وكما أن قوة الظلمة تؤذن بالانبلاج، فإن قوة الشدة تؤذن بالانفراج، كما قال أحد الشعراء:

وكل الحادثات وإن تناهت
فموصولٌ بها فرج قريبُ

وزبدة القول: أن الشدائد توقد في المرء طاقة التذرع والتضرع، التذرع بالأسباب، والتضرع إلى مالك الأسباب، وعندها تكتمل معادلة الفوز والنصر والتمكين.

والآن حان أن نتساءل: كيف يمكن أن نصنع من الشرور جسورًا للعبور إلى السرور؟ ■

(*) أستاذ الفكر الإسلامي السياسي بجامعة تعز / اليمن.

hiramagazine.com

صالح بن محمد آل طالب*

التفاؤل والأمل في قصة يوسف عليه السلام

قصص القرآن الكريم فيها ما يبعث على الأمل والتفاؤل الذي تحيا به النفوس ويزكو به الإيمان. وسنّة الله تعالى اقتضت أن تتولّد الآمال مع اشتداد الكروب، وأن تبزغ خيوط الصباح من ظلمة الليل البهيم، وأن تحلو حكايات السلوان في غمرة الأحزان ومن ثنايا الآلام والخطوب. وهذا ما نجده في حديث القرآن عن الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام.

عام الحُزن والأمل القادم

لعل أحرج فترات السيرة العطرة وأشقّها ما كان بمكة قبيل الهجرة بثلاث سنين، حين ماتت زوجه ﷺ خديجة ﵂، إذ كانت له وزير صدق على الإسلام؛ يشكو إليها، ويستشيرها، ويأوي إليها في ختام يومه الدعوي الحافل. ثم مات عمه أبو طالب بعد ذلك بقليل، وكان منعة له وناصرًا على قومه. ثم وقعت حادثة الإسراء؛ فاستغرب أكثر الناس، وكذبوا، وارتد البعض، وانكفأت الدعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد، وتجرّأت قريش على النبي ﷺ، ونالت من شخصه الشريف ما لم تنل من قبل.

سمّى النبي ﷺ ذلك العام بـ"عام الحزن" لِما كان يعاني فيه من الوحشة والغربة، ولِما عانت معه الجماعة المسلمة من الكربة والشدة. في هذه الفترة، أنزل الله تعالى أربع سور كريمات: سورة الإسراء، وسورة الفرقان، ثم سورة يُونس، وسورة هود. والمتأمّل في هذه السور بخاصّة، يجد فيها من التسلية والحنوّ، والتثبيت والتسرية، ومن أخبار الأنبياءِ مع أقوامهم، وأيامِ اللهِ تعالى فيهم، وإدالة الحق وأهله، ما يقوّي عزم النبي ﷺ وعُصبته المؤمنة، ويبعث على الثبات رغم الشدائد. وقد صرّح الحق سبحانه بهذا المقصد العظيم في خاتمة سورة هود بقوله جلّ شأنه: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(هود:١٢٠).

وفي أعقاب هذه السور الكريمة، وفي خضّم تلك الأحداث، تنزل سورة يوسف لتكون بلسمًا وحنانًا

تضمّنت سورة يوسف في طيّاتها مشاهد الألم والأمل، ومرارة الفراق وحلاوة اللقاء، كما عرضت لقصّة اليأس واليقين والظلم والقهر والابتلاء والصبر، ثم النجاح والنصر.

ورحمة من الله تعالى وسلوانًا.

قصّة يوسف وبشائر التمكين والفرج

قصّ الله تعالى على نبيّه الأمين قصة أخٍ له كريم، هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، وعرض له ما كان يعاني من صنوف المحن والابتلاءات: محنة كيد الإخوة، ومحنة الوحدة في الجُبّ، والترويع والخوف، ومحنة الرِّقّ التي ظلّ يتنقّل بسببها من يد إلى يد على غير إرادة منه ولا حماية ورعاية من أبويه وأهله، ومحنة الابتلاء والإغراء والشهوة، ومحنة الفتنة بكيد امرأة العزيز والنِّسوة، ومحنة السِّجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز، ومحنة الرَّخاء والسلطان المطلق حين أصبح مسؤولاً عن أرزاق الناس وقُوتهم، وأخيرًا محنة صراع المشاعر البشرية وهو يلقى إخوته خاضعين لسلطانه، بعد أن ألقَوْه في الجبّ وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات التي تعرّض لها.

تضمّنت سورة يوسف في طيّاتها مشاهد الألم والأمل، ومرارة الفراق وحلاوة اللقاء، كما عرضت لقصّة اليأس واليقين والظلم والقهر والابتلاء والصبر، ثم النجاح والنصر. واقترنت فيها القدرة على الانتقام، بالعفو والصفح، والرّجاء بالدعاء، والتمكين بعد الابتلاء، وظهرت من خلالها العاقبة الحسنى للمتقين الصابرين، كما تجلّت فيها حكمة الله تعالى وأقداره وتدبيره وأسراره، في نظم قصصي لم تسمع الدنيا بمثله، قال الله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(يوسف:١-٣).

hiramagazine.com

ولا عجب أن تكون هذه السورة بما احتوت عليه من قصة هذا النبي الكريم، ومن التعقيبات الربانية عليها، وتنزّلها على رسول الله ﷺ والمسلمين معه بمكة في هذه الفترة بالذات... لا عجب أن تكون أعظم تسلية وتسرية وتطمين وتثبيت للمؤمنين المطارَدين المضطهَدين. كأنهم يقرؤون فيها تلميحًا بالإخراج من حضنهم الدافئ (مكة) مُكرهين إلى دار أخرى يكون فيها النصر والتمكين، كما أُخرج يوسف من حضن أبيه ليواجه الابتلاءات العظام، ثم تكون له الرفعة والنصر والتمكين: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(يوسف:٢١). لقد جاءت آية التمكين هذه في ثنايا الحديث عن يوسف وهو يُباع بين الرقيق في أرض مصر. وفي أشد حالات الضعف البشري التي واجهها يوسف حين أجمع إخوته على أن يُلقوه في غيابة الجُبّ، وهو يستعطفهم ويذكّرهم بوشائج الأخوة، يأتي قول الحق سبحانه: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾. نعم، إن الله غالب على أمره، فقد أراد إخوته له أمرًا وأراد له الله أمرًا آخر، ولما كان الله غالبًا على أمره ومسيطرًا على كل حركة وسكنة من خلقه فقد نفذ أمره وهم كارهون. ثم جاء التعقيب البديع تعريضًا بحال من سيعمد إلى طرد النبي الهاشمي وأصحابه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾؛ لا يعلمون أن سُنّة الله ماضية، وأنّ أمره هو الذي يكون. وهكذا تواترت بشائر السورة في جميع مراحلها، تأكيدًا للإيمان واليقين، وترسيخًا لمبدأ الثقة وحسن الظن برب العالمين، وبيانًا للعاقبة الحسنى للمتقين. وتأكيدًا لهذه الصلة الوثيقة بالله تعالى، قص الله تعالى خبر نبيه الكريم يوسف، وكيف ﴿لَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾(يوسف:٤٢) لمّا كاد يركن إليه من إخبار الساقي بأن يذكر مظلمته عند الملك، كل ذلك ليقطع عنه الأسباب البشرية كلها، وليجعل قضاء حاجته بيد خالقه جل جلاله لا على يد بشر، بل جعل نجاته وسبب رفعته تمسّكه بالركن الشديد الذي يأوي إليه، خالقه، وهذا ما ظل يوسف يثني به على ربه في عاقبة التمكين والظفر حين قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(يوسف:١٠٠).

وهذا هو درس الوحدانية الأكبر في عام الحزن، فما على عباد الله المخلَصين إلا أن يتمسّكوا بربهم سبحانه، ويُخلصوا العبادة له وحده دون سواه، ويستغيثوا به وحده ولا يعلّقوا آمالهم ببشر مهما كانت درجته، وأن يُسلموا له وحده قيادهم كما أسلموا له أمرهم من قبل. وحين يعجزون بسبب ضعفهم البشري في أول الأمر، فإنهم يلجؤون إليه وحده بأن يتفضّل عليهم بمنازل التسليم له والثقة به والرضا عنه. وفي لحظة الافتقار هذه، يتنزّل عليهم مدد ربهم سبحانه ويتفضّل عليهم بلطفه وإحسانه، حتى لكأنهم يجدون عبق اليقين ويتذوّقون شهد الرضا والتسليم، حبًّا وشوقًا.

نسمات اليقين تطفئ لفحات اليأس

اليقين في حقيقته اعتزاز بالله تعالى، واطمئنان إليه، وثقة به، وتجرّد له، وتحرّر من كل قيم الأرض المادية التي تقطع عنه، واستصغارٌ لشأن كل قوة تضاده وتصدّ عنه.

وحين نعرض لحديث اليقين في قصة يوسف عليه السلام، تعبق مواقف الصبر الجميل ليعقوب النبي عليه الصلاة والسلام؛ المؤمن الموقن، والصابر الواثق الذي لم تضعف ثقته بربه، إذ ظل في أشد حالات الكرب والحُزن يقول لبنيه بكل حنوّ ورحمة، في كل لحظة وداع: ﴿فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(يوسف:٦٤)، ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(يوسف:٦٧). ويبلغ الألم البشري منتهاه، ويصل المشهد إلى ذروته حين يفقد أولاده الثلاثة دفعة واحدة، ولكنه مع كل ذلك يظل ثابت الفؤاد وإن تضعضع جسده وابيضّت عيناه، ولذا تراه يقول بكل ثقة وثبات: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ

hiramagazine.com

يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(يوسف:٨٣)، ثم يقول جامعًا بين الافتقار وحسن التوكل: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(يوسف:٨٦-٨٧). هكذا هو إيمان الأنبياء ويقين الحنفاء، وهكذا هم المؤمنون على الدوام، لا ييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب واشتد بهم الضيق، وهم على الدوام في أنس من صلتهم بربهم، وفي طمأنينة من ثقتهم بمولاهم، موصولة قلوبهم بخالقهم، ندية أرواحهم بروحه، يأنسون بنفحاته الرضية وإن كانوا في مضايق الشدة ومخانق الكروب.

إشراقات اليقين

رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين تظهر في تدبيره سبحانه ولطفه، وهي أجلى ما تكون في عاقبة المحن والابتلاءات، إذ اقتضى علمه ورحمته أن يختبر عباده ليعلم صدقهم وثباتهم، فإذا اجتازوا عقبة اليأس باليقين، ودرجوا في مسالك الكروب بالثبات والصبر الجميل، رفعهم إلى درجات التمكين والعزّة في الدنيا، والدرجات العُلا يوم القيامة. وهذا ما آل إليه حال نبي الله يوسف عليه السلام، فقد انتقل من ظلمات السجن إلى عرش الملك، وأصبح ملكًا عزيزًا بيده خزائن مصر، يتخذ منها المنازل التي يريد في مقابل الجبّ الضيّق المظلم، ويتنقّل في أبّهة الملك برفقة الحرس والحاشية بعد سنوات الخوف والغربة والسجن، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(يوسف:٥٦-٥٧). والأمر لله من قبل ومن بعد، ولذا قال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾، فنبدله من العسر يسرًا، ومن الضيق فرجًا، ومن الخوف أمنًا، ومن القيد حريّة، ومن الهوان على الناس عزًّا ومقامًا عليًّا ﴿وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون الإيمان بالله، والتوكل عليه، والاتجاه إليه، ويحسنون السلوك والعمل ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

فقد عوّض الله ﷻ نبيّه الكريم ﷺ عن المحنة التي ظل يكابدها، مكانة ورفعة في الأرض جزاء وفاقًا على الإيمان والصبر والإحسان.

وهذا من أسرار تكرار وصف الله العلي لذاته بأنه: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(التحريم:٢) الذي تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج، ويعلم الأحوال، ويعلم ما وراء الأحداث والابتلاءات، ويأتي بكل أمر في وقته.

وفي ختام السورة يتكرر التثبيت للطائفة المؤمنة بمكة، ويعود التذكير بمجرى سنّة الله عندما يستيئس الرسل، والتلميح بالمخرج المكروه الذي يليه الفرج المرغوب. معانٍ تدركها القلوب المؤمنة، فيغمرها الإيمان واليقين، والصبر والثبات: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ۞ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(يوسف:١٠٨-١١١).

وتلك سُنّة الله التي لم تتخلّف يومًا من الدهر، فلابد من الشدائد، ولابد من الكروب. وقُبيل مرحلة اليأس يتنزّل النصر نصرًا من الله وحده، ينجو به المؤمنون الصابرون، ويحقّ بأسه على الظالمين المتجبرين، وهي المآلات التي تتكرر على الدوام في أحداث الكون المنظور، وفي آيات الكتاب المسطور. ■

(*) إمام وخطيب المسجد الحرام، مكة المكرمة / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

مدير التحرير

أجير أشيوك

المخرج الفني

مراد عرباجي

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: 5-20226134402+

الهاتف الجوال : 201004871038+

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

Çağlayan Matbaası

İzmir - Turkiye

Tel:+90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ في ما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN

مكتب حراء للنشر والتوزيع

شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء – اليمن

Phone: +967 1 214774

Fax: +967 1 204494

GSM: +967 736027560

ALGERIA

Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim

GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN

مركز دار النيل، مكتب الخرطوم

أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان

Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69

hirasudan@hotmail.com

JORDAN

شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61

عمان/الأردن.

Phone: +962 656 064 44

GSM: +962 775 935 756

hirajordan@woxmail.com

UNITED ARAB EMIRATES

دار الفقيه للنشر والتوزيع

ص.ب. 6677 أبو ظبي

Phone: +971 266 789920

MAURITANIA

Phone: +2223014264

SYRIA

GSM: +963 955 411 990

USA

Tughra Books

345 Clifton Ave., Clifton,

NJ, 07011, USA

Phone:+1 732 868 0210

Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA

الوطنية للتوزيع

Phone: +966 1 4871414

المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار

ص.ب: 68761 الرياض: 11537

الجوال: 00966504358213

saudia@hiramagazine.com

abdallahi7@hotmail.com

Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO

الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة

Société Arabo-Africaine de Distribution,

d'Edition et de Presse (Sapress)

70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco

Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT

٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد – الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة.

هاتف: +201065523089 - +201119482609

hiraegypt@gmail.com

LİBYA

دار الرواد، ذات العماد، برج ٤–طرابلس–ليبيا.

هاتف: 00218213350332 - daralrowdooks@gmail.com

هاتف: 00218916125579 - hiralibya@gmail.com

عودة الفرسان

سيرة محمد فتح الله كولن

رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب

الرواية الأخيرة لفقيد الأمة فريد الأنصاري

- رواية شاعرية النَّفَس،
- واقعية المضمون،
- وَهَّاجة النور،
- شاجية القلب،
- وجيعة الوجدان...
- تغنِّي للأمل، وتهتف للمستقبل؛
- تكفكف الدمع، وتمسح الألم...

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+

www.daralnile.com

دار النيل

تركيا: ٧,٥ ليرة • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولارات • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا

ISSN 1306-1879
9 771306 187009 41
www.hiramagazine.com
Mart - Nisan 2014 Sayı: 41 Fiyatı: 7,5 TL.

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

الحمام رسول وبشير

إنْ طار الحمام، ولامس بجناحه الغمام،
ورفَّ فوق الآكام، وصفّق جناحُه، وهدل صوتُه...
فاعلم أنه صاحب بشرى ورسول أمنٍ وأمان،
وإيماءة فرج من ضيق، وعلامة لعالَم طليق،
سيُقدِم عن قريب...

* * *